روايات  عالمية

الكولونيل شابير

Le Colonel Chabert

روايات عالمية
العدد رقم ٣٣٢

الكولونيل شابير

تأليف: أونوريه دي بلزاك
تعريب: محمود عبد المنعم

ـ ها هو ذا « المعطف العتيق » قد عاد مرة أخرى !.

سقطت هذه الكلمات من شفتي فتى صغير ممن يعملون ككتبة لدى المحامين وكان يقضم بشهية في قطعة من الخبز بين يديه ، وهو متكىء بذراعه على حافة النافذة . وما لبث ان اقتطع قليلا من لباب الخبز ، وعالجه بين أصابعه ، فجعل منه كرة صغيرة القى بها وهو يضحك من النافذة وانطلقت الكرة حتى استقرت على الأرض بعد أن صدمت قبعة رجل عجيب كان يجتاز فناء الدار التي يسكنها الاستاذ درفي المحامي في شارع فيفيين .

قال كبير الكتبة ، وقد توقف عن متابعة جمع قائمة بالمصروفات كانت بين يديه :

ـ هيا ، يا سيمونان ، كف عن الهذر وعن معاكسة الناس ، والا القيت بك خارج باب المكتب . هل يعيب العميل ان يكون فقيرا ؟ . انه انسان على كل حال .

ان كاتب المحامي ، من أمثال سـيمونان ، هو عادة صبي في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره . وهو في سائر المكاتب خاضع لسلطان كبير الكتبة ، الذي لا يكف عن تكليفه بخدماته الخصوصية ،

الى جانب رحلاته التى لا تنقطع الى أقلام المحضرين وسائر جهات المحاكم ، يقدم الى هـــذه الاعلانات ، ويسحب من تلك الأوراق والاحكام . وهو يجمع فى طباعه شقاوة غلمان باريس الى جانب حب المشاكسة التى يعيش فى جوها ويعد نفسه لجعلها مهنة له. ولذا كانت صفاته الغالبة القسوة والجرأة والتمرد والقحة ، فضلا عن الجشع والكســل المتناهيين .. على أن لكل من هؤلاء الكتبة الصغار اما عجوزا تســكن فى احد الطوابق الخمسة ، يتقاسم معها الثلاثين أو الأربعين فرنكا التى يحصــل عليها اجرا عن كل شهر .

وقال سيمونان معاندا كالتلميذ الذى يفاجىء معلمه واقعا فى الخطأ :

ـ اذا كان هذا العميل انسانا كسائر البشر ، فلماذا اطلقتعليه اسم « المعطف العتيق » ؟ .

وعاد الفتى يقضم قطعة الخبز بين يديه ويأكل الجبن ، وهـو يستند بكتفه الى قائم النافذة . فقد تعود ان يجد الراحة وهـو واقف ، كالخيول الخشبية ، وقد رفع احدى ساقيه وركزها على حافة الحذاء فى الساق الأخرى .

وجاء صوت خافت يقول :

ـ أى مقلب ، يا ترى ، نستطيع أن نعمله فى هذا المخلوق ؟..

وكان هذا الصوت صوت الكاتب الثالث ، المدعو جوديشال ، وقد توقف عن متابعة القاء عبارات العريضة التى كان يملى نصها على زملائه ، فيحرر الكاتب الرابع أصلها ، ويسود صورا منهـــا كاتبان مستجدان قادمان من الريف للمران . ثم عاد جوديشـــال الى ما كان فيه من املاء :

ـ « ان ... صاحب الجلالة الملك لويس الثامن عشر ـ اكتبها حروفا كاملة ، انت يا ديكروش ، فى اصل العريضة ـ بما توفر له من حكمة نبيلة كريمة ، قد ادرك ـ ما الذى ادركه هذا النصـــاب

الفليظ ؟ ـ عندما استعاد مقاليد ملكه ، المهمة الســـامية التى اختصته بها العناية الالهية ـ ضع هنا علامة تعجب وكثـــيرا من النقط ، لان الشعور الدينى قوى بين رجال المحـكمة وسيسرون لهذه الكلمات ـ وكان همه الأول ، كما يدل على ذلك الأمر المشـــار اليه فيما تقدم ، العمل على مسح المآسى وازالة المظالم التى خلفتها لنا الفترة الثورية ، فأعاد الى رعاياه المخلصين العديدين ـ ستسعد المحكمة بكلمة « العديدين » هذه ـ جميع ما لم يتم بيعـــه من اموالهم ، سواء منها ما وجد ضمن الملكية العامة ، أو ضمن ملكيـة التاج الخاصة ، أو ضمن ما وهب الى المرافق والمؤسسات . ذلك اننا على يقين من أن هذا هو الذى قصد اليه الأمر الكريم الصادر فى ... »

وهنا توقف الزملاء ، اذ رفع الكاتب الرابع راسه وهو يقول :

ـ مهلا ، لقد وصلت بى هذه الجملة اللعينة الى نهاية الصفحة .

واخذ يلعق بلسانه ظهر الورق المدموغ السميك ليقلب منـــه الصفحة . وانتهز جوديشال الفرصة ليقول :

ـ اذا أردتم ان تعملوا مقلبا نظيفا فى هذا الوغد ، فلنقل له ان الاستاذ لا يستقبل عملاءه الا فيما بين الثانية والثالثة صباحا ... وسنرى ما الذى يفعله ..

ثم عاد الى الاملاء :

ـ ... الامر الكريم الصادر فى .. هل أنتم جميعا معى ؟.

فصاح الكتبة الثلاثة فى صوت واحد :

ـ نعم .

وهكذا كان كل شىء يسير بتوافق : تحرير العريضة ، والحديث الذى لا جدوى منه ، والمؤامرة ضد العميل المسكين .

ـ ... الصادر فى ... ما هو تاريخ ذلك الامر . يا عم بوكار؟

يجب ان نضع النقط على الحروف . يا خبر ! .. لقد كثرت الصفحات .

وقبل ان يجيب بوكار ، كبير الكتبة ، على السؤال ، قال احد الكاتبين مرددا :

ـ يا خبر !..

فصاح جوديشال ، وهو يلقى الى هذا الكاتب نظرة اجتمعت فيها علامات الدهشة والقسوة والاستهزاء :

ـ كيف ؟ هل كتبت « يا خبر » ؟..

ومال ديكروش على الورقة التى بين يدى زميله الجالس الى جواره ، وقال :

ـ نعم . لقد كتب : « يجب ان نضع النقط على الحروف . يا خبر .. » وجعل نقطة فوق الراء .

فانطلقت من حناجر الكتبة جميعهم ضحكة عالية . وصاح سيمونان :

ـ كيف يا مسيو هورى تعتبر الخبز من العبارات القانونية ؟ ومع ذلك تزعم انك خريج مدرسة مورتانى !..

واسرع كبير الكتبة يقول :

ـ امسح هذا السخف . لو رأى القاضى الذى سيقرأ الملف هذا الهراء لقال اننا نستهزىء بالسلطات . انك تضع الاستاذ بذلك فى حرج شديد . لا تعد الى مثل هذه السقطة ، يا مسيو هورى . ان الكاتب النورماندى لا يحرر العرائض بمثل هذا الاستخفاف ، وهى اساس عمل كاتب المحامى .

وعاد جوديشال يسأل :

ـ .. الصادر فى .. الصادر فى .. قل لى يا بوكار ، الصادر فى كم ؟.

فرد كبير الكتبة من غير ان يحول عينيه عمـــا بين يديه من اوراق :

ـ يونيو ١٨١٤ .

ودق باب المكتب ، فتوقف الاملاء ، ورفع الكتبة الخمســة عيونهم الساخرة ورءوسهم المستديرة ، صائحين فى صوت منغم متراخ :

ـ ادخل .

اما بوكار فظل وجهه غارقا وسط تلال الأوراق والمستندات ، وهو يجمع كشف المصروفات الطويل بين يديه .

وكان المكتب غرفة واسعة يزينها الموقد التقليدى الذى لايخلو منه أى مكان خصص للنزاع والمشاكسة . وقد برزت على احدى حوائطه مجموعة من المواسير التى تنتهى داخل مدفأة بطل عملها ، وانتشر عـلى لوحتها الرخامية فتـات الخبز وقطع الجبن وبقايا العظام ، الى جانب الاكواب والزجاجات واناء الشراب الخـاص بكبير الكتاب . وكانت الروائح المنبعثة من هذه المواد التموينية تمتزج بالأبخرة المتصاعدة من الموقد المشتعل ، وبالعفونة المميزة لاكداس الأوراق وملفات القضايا ، فتنتج عن ذلك زهمة لا تدانيها زهمـة الثعلب النتن . وكان الوحـل والثلج منتشرين فى أرض الغرفة بفعل أقدام الكتبة ، وحـول المنضدة التى يجلس خلفها كبيرهم الى جوار النافذة ، وبجانبها منضدة الكاتب الثانى ، الذى كان فى ذلك الوقت يجوس هناك خلال دهاليز المحكمة يتابع فيها شـئون المكتب . وكانت الساعة ما بين الثامنة والتاسعة صباحا ، وقـد انتشرت على حوائط الغرفة لوحات صفراء لصقت عليـها أوراق مهلهلة تعلن عن الحجوزات العقارية ، وعن البيوع الجبـرية ، وعن اجراءات القسـمة بين بالغ لسن الرشـد وقاصر ، وعن مزايدات نهائية أو تمهيدية ... كل ما تفخر به مكاتب المحامين وعليـه تعيش . وخلف كبير الكتاب انتصبت خزانة هائلة تكسو الحائط من اسفلة الى اعلاه ، وقد انحشرت فى جنبـاتها رزم الأوراق ،

يتدلى منها عدد لا يحصى من الجذاذات والخيوط الحمـــراء التى تضفى على ملفات الاجراءات طابعها الخاص . اما الاجزاء الدنيامن تلك الخزانة فكانت تعج بالاضابير العتيقة التى تحمل اسماء كبار العملاء ، ممن تطبخ قضاياهم الدسمة فى ذلك الوقت .

ولم يكن يمر من زجاج نوافذ الفرفة غير قليل من الضوء ،وهل فى باريس كلها مكتب يستطيع المرء ان يخط فيه سطرا بغـــير الاستعانة بنور المصباح قبل العاشرة صباحا فى شهر فبـــراير ؟ ذلك ان مكاتب المحامين تحظى باهمال له ما يبرره . فالكل يذهب اليها ولا يبقى فيها احد . وقد هانت على الجميع فلم يحرص احد على تجميلها وحفظ ردائها . فالمحامون من اصحابها لا يرون فيهـا غير العمـل الذى تأتى عن طريقه الاتعاب ، والمتقاضـــون الذين يترددون عليها يكتفون منها بالعبور السريع ثم الفـكاك والـكتبة الذين يعملون بها لا يهمهم من أمرها شيء . ان ما بها من أثاث قذر ينتقل بقذارته من زميل الى زميل فى امانة مطلقـــــة ، وكأنه من المقدسات الدينية التى يمتنع تغييرها ويجب الحفاظ عليها . وهكذا نرى اليوم فى بعض تلك المكاتب من الادوات والمســميات ما كان شائعا فى العهود الغابرة .

كان هذا المكتب اذن ، كغـيره من أمثاله ، مظلما قذرا ينتشر التراب فى أرجائه ، ولا يجد المتقاضون فيه شيئا يسر العين أو يطمئن القلب . فكان بذلك من افظع عجائب باريس واكثـــرها شناعة . حقا ، لو لم توجد المعابد الرطبة حيث توزن الصـلوات وتشترى كانها سلعة العطار ، ولو لم توجد حوانيت الثيـــاب العتيقـــة حيث تتأرجح الخرق التى تذبل أمامهـــا جميع أوهام الحياة ، والتى ترينا الى أين ينتهى المصير بأفراحنا واعيادنا ، لو لم توجد هاتان المباءتان اللتان يمتهن فيهما الجمال وتجرد فيهمـا الشاعرية من روائها ؛ لكان مكتب المحــــامى ، من بين الأماكن الاجتماعية ، أكثرها كآبة وأشدها وحشة . ولكن ، ألا يشترك فى ذلك كل من بيت المقامرة ومبنى المحــكمة ومكتب اليانصـــيب والماخور ؟ . لماذا ؟ . لعل السبب يرجع الى أن المأساة التى تعتمل فى

صدر الانسان داخل هذه الاماكن تصرفه عن الاهتمام بحـــواشى الامور وجوانبها التافهة. أو ليس فى ذلك ما يفسر اصدق التفسير ما جبل عليه كبار المفــكرين وعظماء الطامعين من تجرد وبســاطة عيش ؟ .

ـ اين مطواتى ؟ .

ـ انا أتناول افطارى !.

ـ يا للداهية !.. كيف تضع الفطيرة فوق صفحات العريضة؟.

ـ اسكتوا ، يا سادة .

انطلقت هــــذه العبارات كلها فى اللحظة التى أغلق فيهـا المتقاضى العجوز باب المكتب ، وقد بدا عليه الانكسار الذى يشــوه حركات الرجل البائس . وحاول القادم ان يبتسم ، ولكن عضلات وجهه لم تلبث ان تراخت بعــد أن نظر الى وجــوه الكتبة الستة فوجدها غير حافلة بمقدمه ، وليس بها سمة من سمات الترحيب به أو العطف عليه .

لاشك انه قد خبر الحكم على الرجال . فقد توجه فى أدب جم الى سيمونان ، أصغر الموجودين ، لعله يجد لديه ردا لا خشــونة فيه ، وقال له :

ـ سيدى ، هل يمكننى ان اقابل الاستاذ ؟.

فما كان من الصبى الخبيث الا ان رفع يده اليسرى الى اذنه ، ونقر عليها نقرات متوالية بأصابعه ، وكأنه يريد أن يقول : « أنا أصم لا اسمع » .

وأسرع جوديشال يقول ، وهو يلقى فى شدقه بلقمة كبيرة من الخبز ، ويرفع مطواته فى الهواء ، ويضع ساقا على ساق فى حركة طوحت بقدمه الى مستوى عينيه :

ـ ما الذى تريده ، ياسيدى ؟.

فرد عليه القادم فى ذلة :

ـ هذه هى المرة الخامسة التى آتى فيها الى هنا ، ياسيدى ، انى اريد التحدث مع الاستاذ درفى .

ـ هل يتعلق الأمر بقضية ؟.

ـ نعم . ولكن لا استطيع شرح الموضوع الا للاستاذ ..

ـ الاستاذ نائم . اذا كنت تريد استشارته فى أمر ذى بال فهو لا يعمل جادا الا عند منتصف الليل . ولكن اذا شئت ان تعرض علينا قضيتك استطعنا مثله تماما ان . . .

وظل الرجل واقفا ، ينظر فى خشوع الى ما حوله ، كانه كلب واج الى وليمة لم يدع اليها ، ويخشى أن تنهال عليه الضربات .. ان كتبة المحامين محصنون بفضل مهنتهم ضد اللصوص ، فهم لا يخشونهم أبدا . لذلك لم تداخلهم اية ريبة فى نوايا الرجل ذى المعطف ، وتركوا له حرية التجول بنظره فى ارجاء المكتب باحثا عن مقعد يجلس عليه ، فقد كان بادى الارهاق . ومن طبع المحامين الا يتركوا مقاعد كثيرة فى مكاتبهم ، فلا يلبث العميل الذى لا جدوى منه ان يمل الوقوف على قدميه ، ويسرع بالانصراف وهو يسب ويزمجر ، وبذلك لا يضيع الوقت فيما لا اتعاب فيه .

وقال الرجل ذو المعطف :

ـ سيدى ، لقد سبق لى أن تشرفت بابلاغك أنى لا أستطيع عرض قضيتى الا على الاستاذ درفى . سأنتظره حتى يصحو من نومه ..

انتهى بوكار من جمع كشف المصروفات ، وتاقت نفسه الى الشراب . فغادر مقعده الخيزرانى ، واتجه نحو المدفأة ، والقى نظرة على الرجل العجوز وعلى معطفه ، وبدا على وجهه الاشمئزاز . لعل فكرة جالت بخاطره تقول انه على أى وجه يمكن عصر هذا العميل فلن يستطيع استخراج سنتيم واحد منه . وأسرع بكلمة حاسمة يحاول صرف الرجل وانقاذ المكتب من وجوده :

ـ لقد قالوا لك الحقيقة ، يا سيدى . الاستاذ لا يعمل الا ليلا . اذا كانت قضيتك ذات خطورة فنصيحتى لك ان تعود فى الساعة الواحدة من الصباح .

ووقف صاحب المعطف العتيق لحظة لا حراك به ، ينظر الى كبير الكتبة نظرة بلهاء . ولما كان الكتبة قد تعودوا على رؤية الانفعالات المتقلبة التى ترتسم على وجوه المتقاضين ، وخبروا آثار الامال والاوهام التى تراود نفوس أصحاب المنازعات ، فقد ظلوا سادرين فى اكلهم وقضمهم محدثين بأفواههم واسنانهم ضجيجا كضجيج الخيول المجتمعة على العلف . وانصرفوا عن العجوز لا يولونه اهتماما .

بعد برهة ، قال الرجل فى عناء البؤساء ، وكأنه يريد اثبات الظلم على الانسانية جمعاء .

ـ سأعود هذا المساء ، يا سيدى .

ليس لمن كتب عليهم الشقاء من وسيلة للتشفى الا اجبار العدالة والاحسان على الاقرار بالتقاعس والقصور ، ومتى نجح البؤساء فى اثبات الكذب والرياء على المجتمع جميعه أسرعوا بالارتماء بين احضان الله .

وقبل أن يغلق العجوز الباب خلفه انطلق سيمونان يقول :

ـ ياله من مغفل عجيب !.. يبدو عليه انه خارج لتوه من القبور ...

ورد كبير الكتبة يقول :

ـ بل انه كولونيل قديم يطالب بمتأخراته .

واعترض جوديشال قائلا :

ـ كلا . انه بواب متقاعد .

وصاح بوكار :

ـ أنا اراهنكم انه احد النبلاء .

وعاد جوديشال يؤكد :

ـ وانا اراهن انه بواب سابق . ان البوابين وحدهم هم الذين خصتهم الطبيعة بمثل هذا المعطف البالى «المزيت» الممزق من أسفلة الذى يرتديه هذا المخلوق . الم تروا حذاءه المكعوب الذى ينفذ منه الماء ؟ أو رباط الرقبة الذى يقوم مقام القميص ؟ .. لاشك انه قضى ليلته فى عرض الطريق .

وقال ديكروش :

ـ يجوز ان يكون من النبلاء ثم عمل بوابا .. توجد حالات كثيرة من هذا القبيل ..

وقال بوكار وسط ضحكات الجميع :

ـ كلا .. وانما أؤكد انه كان عاملا فى مصنع بيرة سنة ١٧٨٩ ، ثم تحول الى كولونيل فى عهد الجمهورية .

واعترض جوديشال قائلا :

ـ انه لم يكن جنديا قط . واراهنكم جميعا على صدق حدسى بدعوتكم الى سهرة فى الملهى على حسابى ..

وأسرع سيمونان الى النافذة ففتحها واخذ يصيح :

ـ يا سيد ، ياسيد !.

فالتفت اليه بوكار يسأله :

ـ ما الذى تفعله يا سيمونان ؟.

ـ أناديه لاسأله اذا كان كولونيلا أو بوابا .. لابد انه يعرف ذلك .

وضج الكتبة جميعا بالضحك ، بينما عاد الرجل العجوز يصعد السلم ثانية .

وصاح جوديشال :

ـ ما الذى ستقوله له ؟.

فرد عليه بوكار :

ـ دعني اتصرف انا معه .

ودخل ذو المعطف العتيق ذليلا منكسرا خافضا ناظريه الى الأرض . فلعله اراد بذلك ان يخفى الجوع الذى يعتمل فى احشائه اذ نظر باشتهاء الى الطعام المتبادل بين الأيدى والأفواه .

قال له بوكار :

ـ هلا تفضلت يا سيدى بذكر اسمك ليعلم الاستاذ من انت ؟.

ـ شابير .

وابتدره هورى بالسؤال بعد ان ظل طوال الوقت لا ينبس بكلمة ، وقد أراد أن يساهم هو الآخر فى الاستهزاء بالرجل المسكين :

ـ الكولونيل الذى قتل فى موقعة ايلو ؟..

ـ هو بعينه ، ياسيدى .

قالها الرجل فى صوت هادىء حزين وانصرف .

ـ اف !..

ـ الى حيث ألقت !..

ـ فى داهية !..

ـ اوه !.

ـ يا حفيظ !..

ـ يا ليل ، يا عين !.

ـ عال ! .

وقف هورى ، وقال لزميله الكاتب الرابع وهو يلكمه لكمة فى كتفه تكفى لالقاء ثور على الأرض :

ـ ستذهب الى الملهى ، يا سيد ديكروش ، من غير ان تدفع شيئا ..

وانساب سيل من الصرخات والضحكات والأصوات يعجز الكلام عن وصفه .

ـ الى اى المسارح نذهب ؟.

صاح كبير الكتبة :

ـ الى الاوبرا !..

وعاد جوديشال يقول معترضا :

ـ أولا ، انا لم احدد لكم اى مسرح ، وفى استطاعتى اذا اردت إن آخذكم عند مدام ساكى .

فأسرع ديكروش يقول :

ـ مدام ساكى ليست ملهى .

فقال جوديشال :

ـ ما هو الملهى ؟ . فلنحدد أولا النقط الموضوعية .. ما الذى راهنتكم عليه يا سادة ؟. ملهى .. ما هو الملهى ؟. شيء يرى .

وصاح سيمونان مقاطعا :

ـ على هذا الأساس ، سوف تكون قد أوفيت برهانك اذا ما اخذتنا معك لترينا الماء وهو يجرى فى نهر السين ..

ولكن جوديشال قال مكملا كلامه :

ـ .. يرى مقابل نقود .

وأعترض ديكروش قائلا :

ـ ولكن هناك أشياء كثيرة يراها الانسان مقابل نقود وهى ليست ملاهى . التعريف غير سليم .

ـ اصغوا الى .

قال بوكار :

ـ انت تهذى ، يا عزيزى .

وعاد جوديشال يقول :

ـ الا يعتبر متحف كورتيوس للشمع ملهى ؟.

فقال كبير الكتبة :

ـ كلا ، انما هو قاعة لعرض التماثيل فقط .

وثار جوديشال وهو يقول :

ـ اراهنكم مائة فرنك مقابل صلد واحد ان متحف كورتيوس يحوى كل ما يمكن ان يطلق عليه اسم ملهى . ففيه أشياء يراها الناس بأجور متفاوتة حسب المكان الذى يريد المرء ان يجلس فيه ..

وهنا صاح سيمونان :

ـ شرم برم !..

فغضب جوديشال وقال :

ـ حذار ، انت ايها الوغد !.. والا لطمتك على وجهك ..

وهز الكتبة أكتافهم . اما جوديشال فقد احرجته ضحكات زملائه ، فترك تفسيراته اللغوية جانبا ، وحاول طريقا آخر للافلات من الرهان . فقال :

ـ وهل ثبت تماما ان هذا القرد العجوز لم يسخر منا ولم يهزأ بنا ؟. ضميرى يحدثنى ان الكولونيل شابير قد مات وشبع موتا . وقد اقترنت زوجته من بعده بالكونت فيرو مستشار الدولة، ومدام فيرو أحدى عميلات المكتب .

وأسرع بوكار ينهى النقاش ويقول :

ـ تأجلت الدعوى الى الغد ، يا سادة . هيا الى العمل .. الى أوراقكم . الا يمكن الانتهاء من شيء فى هذا المكتب ؟ . اتموا لى هذه العريضة ، اذ يتعين أعلانها قبل جلسة الدائرة الرابعة . ان القضية تنظر اليوم . هيا ، الى العمل .

وقال ديكروش وهو يعتقد ان الرأى الذى يبديه أقوى حجة من الرأى الذى جاء به جوديشال :

— لو كان هذا هو الكولونيل شابير حقيقة ، لكان قد اسرع الى ارسال طرف قدمه فى مؤخرة هذا النصاب سيمونان حينماادعى امامه الصمم .

وعاد بوكار يقول :

— مادام لم يتقرر شىء بعد ، فلنتفق على الذهاب فى الدرجة الثانية بالمسرح الفرنسى لنرى الممثل تالما فى مسرحية نيرون . أما سيمونان فيذهب الى أعلى التياترو .

وجلس كبير الكتبة الى منضدته ، فاسرع الجميع الى الجلوس مثله . وقال جوديشال :

— الصـــادر فى يونيو ســنة الف وثمـانمائة واربع عشرة — بالحروف كاملة — هل انتم معى ؟.

— نعم .

قالها الناسخان وكاتب الاصل معا ، وهم يحــدثون بأقلامهم الجارية على الورق المدموغ صريرا يملأ جو المكتب .

— .. ونحن نلتمس من هيئة المحكمة الموقرة .. قف . يجب ان اعيد قراءة الجملة ، فلم أعد افهم شيئا مما اقول ..

وجاء صوت بوكار الذى عاد الى عمليات الجمع ، يقول :

— ستة واربعون .. لاشك ان هذا يحدث لك كثـــيرا ... وثلاثة تسعة وأربعون .

ولكن جوديشال تجاهل ملاحظة زميله ، وبعد أن قرأ العريضة من اولها ، عاد الى الاملاء :

— .. نلتمس من هيئة المحكمة الموقرة ان تســمو الى الفرض النبيل الذى أراده واضع هذا الأمر الكريم ، وأن ترفض الادعاءات الظالمة التى تزعمها الهيئة العليـا لادارة جوقة الشرف ، فتـؤكد بذلك القضاء فى معناه الواسع الذى أقمنا الدليل عليه ...

وهنا قاطعه سيمونان الخبيث قائلا :

ـ مسيو جوديشال .. هل تريد كوبا من الماء ؟ .

وقبل ان ينتبه جوديشال الى الرد على هذه المداعبة السخيفة، قال بوكار :

ـ يالك من مهذار لعين يا سيمونان ! .. هيا ، اعد ساقيك للسير السريع ، وخذ هذه الأوراق ، وطر بها الى الانفاليد فى الحال .

وراح جوديشال يكمل الاملاء :

ـ .. الذى أقمنا عليه الدليل هنا .. ـ اضيفوا ـ لصالح مدام .. ـ بالحروف كاملة ـ كونتيسة جرانليو .

وما ان سمع كبير الكتبة هذا الاسم حتى صاح :

ـ كيف هذا ؟ كيف تضيع الوقت فى تحرير عريضة لقضية كونتيسة جرانليو ضد جوقة الشرف ؟ انها قضية من مكتب آخر ، وأتعابها ضئيلة ومحدودة .. كم أنت غبى ! . هلا تركت هذه العريضة بنسخها وأصلها جانبا ، وصرفت هذا الجهد وهذا الوقت الى قضية نفارين ضد مؤسسة الملاجىء ؟ .. لقد تقدم بنا الوقت . سأحرر مذكرة صغيرة بالحيثيات ، وأذهب بعدها بنفسى الى المحكمة ..

وكان هذا المشهد لحظة من آلاف اللحظات السعيدة التى يتذكرها الشبان بعد مضى السنين فيقولون : أيام زمان الحلوة !

عندما اقتربت الساعة من الواحدة صباحا ، جاء الكولونيل شابير المزعوم يطرق باب الاستاذ درفى المحامى لدى محكمة السين الابتدائية ، فأجابه البواب بان الاستاذ لم يعد الى منزله بعد . ولكن الرجل العجوز تمسك بالموعد الذى ضرب له وصعد الى حيث يقطن المحامى الذى يعتبر ، على الرغم من صغر سنه ، واحدا من ألمع رجال القانون واشدهم بأسا . وكانت دهشة القادم كبيرة عندما فتح له باب المسكن ووجد كبير الكتبة منهمكا فى ترتيب ملفات قضايا اليوم التالى على المنضدة فى غرفة طعام مخدومه .

ولم تكن دهشة الكاتب بأقل من دهشة الزائر . ولكنه حياه وطلب اليه ان يجلس فجلس .

قال العجوز وهو يتكلف الهـــدوء كالغـــريق الذى يتكلف الابتسام :

ـ ظننتكم والله تمكرون بى يا سيدى حينما حددتم لى امس هذه الساعة المتأخرة لاستشارة الاستاذ ..

فرد عليه كبير الكتبة من غير ان يتوقف عما هو فيـــه من عمـــل :

ـ لقد كان زملائى هذرين وصادقين معا . لقد اختار الاستاذ درفى هذه الساعة لدراسة القضايا وتلخيص وقائعها وترتيب طرق مباشرتها واحكام وسائل الدفاع فيها . ان ذهنه الجبار لا يجد الانطلاق الا فى هذه الفترة التى يتوفر له فيها الهـــدوء والصمت اللازمين للعثور على الافكار الجيدة . وانت الان ثالث الحـالات ، منذ بدء اشتغاله بالمحاماة ، التى يبدى فيها مشورته فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل . سيأخذ الاستاذ ، بمجرد عودته ، فى مناقشة القضايا وقراءة كل ما فيها . وســـيقضى فى ذلك اربع ساعات او خمسا ، ثم ينادينى ويبلغنى توجيهاته . وفى الصباح يقضى الفترة من العاشرة الى الثانية فى المحكمة او فى الاستماع الى عملائه ، ثم يصرف باقى النهار فى مقابلاته . وفى المساء يتصل بعلية القوم للمحافظة على صداقاته واتصالاته . وهكذا لا يبقى له غير الليل لفحص قضاياه والغوص فى اعماق القـــوانين وتدبير مخططات معاركه . انه يرفض أن يخسر قضية واحدة من قضاياه العديدة ، وهو يحب مهنته ويعشق عمله . على أنه ليس كســائر زملائه ، يرضى بكل ما يصادفه من قضايا ، او يقبل كل ما يعـرض عليه من منازعات . هذه هى حياته ، حياة كلها عمل وجد ونشاط ، ولذلك سيربح مبالغ طائلة ..

ظل الرجل صامتا وهو يستمع الى هذا الكلام ، وارتسمت على وجهه الكئيب علامات ليس فيها من الذكاء أو الفهم شيء . فنظـر

اليه الكاتب برهة ، ثم انصرف عنه تماما ، ولم يعد يعـــيره اى اهتمام . وبعد لحظات دخل درفى وهو فى ثياب الرقص . فتح له كبير كتبته الباب ، وعاد الى ما كان فيه من عمل .

دهش المحامى الشاب عند رؤيته لهذا العميل العجيب جالسا فى عتمة القاعة . وكان الكولونيل شابير لا يبدى حراكا وكأنه احد التمـاثيل الشمعية المعروضـة فى متحف كورتيوس الذى اراد جوديشال أن يصطحب اليه زملاءه . وما كان هذا الجمود ليثير الدهشة لولا المظهر العام لهذا الانسان الغامض . فقد كان الرجل العسكرى العجوز جامد الوجه نحيل الجسم ، تختفى جبهته تحت خصلات الشعر المستعار الناعم الذى يغطى راسه ويسربله بالتجهم والأسرار . وقد غارت عيناه خلف ما يشبه الغلالة الشفافة فبدتا وكأنهما من الأصـداف القـذرة التى ترتعش زرقتها فى ضـوء الشموع . وكان وجهه شاحبا ناحلا حاد المعالم بارز الأعضاء كوجوه الموتى . وقد التفت حول عنقه ربطة قذرة من الحرير الأسود . وأسفل الخط الداكن الذى ترسمه تلك الربطة كان الظلام منتشرا يلفلف كل ما بقى من جسـم الرجل ، فبرز الرأس وكأنه رسـم تخطيطى من فنان عجول ، أو صورة لاحدى شخصيات رامبرانت جردت من اطارها . وكانت حافة القبعة فوق الرأس ترسل ظلا كثيفا على الجزء الأعلى من الوجه ، فتزداد باقى القسمات تحديدا ، وتزداد التجعدات ظهورا ، وتزداد الملامح شبها بالجثة الهامدة . وقد ساعد انعدام الحركة فى هذا الجسم الجاف ، وانعدام التعبير فى هذه النظرة الجامدة على اظهار الرجل بمظهر المجنون المكتئب ، الذى اجتمعت فيه علامات الانحطاط المميزة للبله والعته ، مما تعجز الكلمات عن وصفه . ولكن هذا المظهر الكئيب لم يكن ليحول بين أى امرىء أوتى قدرا من قوة الملاحظة ودقة النظر ، وخصوصا اذا كان محاميا ، وبين الكشف فى دخيلة هذا الرجل المحطم عن حزن دفين ، وعن بؤس كامن ترك آثاره على وجهه ، فشوهه كما تشوه قطرات الماء المتساقطة من السماء التمثال المرمى الجميل . وما كان الطبيب الماهر ولا الكاتب العميق ولا القاضى الحصيف ليعجز اى منهم عن

اكتشـــاف المـأساة التى تضطرم داخل هذا الحطام ، الذى يبدو وكأنه وجه خيالى خطته على هامش اللوحة ريشة الفنان الموهوب وهو يتحدث لاهيا مع أصدقائه .

وعندما نظر الرجل الى المحامى ، اعترته رعدة فيها تقلصـات كتلك التى تهز كيان الشاعر ، عندما يجتذبه الضجيج المفاجىء من بين تأملاته الخصبة وسط الليل الساكن . فأسرع يخلـع قبعته وينتصب واقفا ليحيى رجل القانون الشاب . ولما كانت الجـلدة المبطنة للقبعة من الداخل قد تشربت من جبهة الرجل ومن رأسه زيتا وشحما ، فقد التصق بها شعره المستعار ، وكشف عن ام الرأس ، فبدا فيه ندب مستعرض طويل ، يبدأ من مؤخرة الرأس ، وينتهى عند محجر العين اليمنى ، وقد برزت على طول حافتيه خيـاطات غليظة . وسقط الشعر المستعار الذى كان يخفى به الرجل العجوز رأسه المهشم ، ولكن سـقوطه لم يحمل المحـامى ولا كاتبه على الضحك ، وانما اوحى اليهما منظر الجرح العميق بخاطر يقول « من هنا هرب العقل ودخل الجنون » .

وقال بوكار فى نفسه :

ـ اذا لم يكن هذا الرجل هو الكولونيل شابير حقيقة ، فهـو بلاشك جندى باسل عظيم .

وتوجه درفى الى الرجل يسأله .

ـ الى من لى الشرف أن اتحدث ، يا سيدى ؟ .

ـ الى الكولونيل شابير .

ـ أيهم ؟ .

فقال العجوز :

ـ الذى مات فى موقعة ايلو .

وعند سماع هذا الرد العجيب تبـادل المحامى وكاتبه نظرة معناها :

ـ نحن امام رجل مجنون .

وعاد الكولونيل يقول :

ـ سيدى ، أود الا استودع احدا غيرك السر المحيط بموقفى .

من الأمور الملاحظة عادة عن المحامين ، تلك الجراة الطبيعية على التدخل فى شئون الناس . ولعل سبب ذلك اعتيادهم على مقابلة العديد من خلق الله ، أو لعله الأحساس العميق بالحماية التى تضفيها عليهم القوانين ، وربما كان السبب ثقتهم الزائدة بأنفسهم وبالمهنة التى يزاولونها . وايا كان السبب فهم يدخلون بلا خوف ولا وجل حيث لا يجوز لغيرهم الدخول ، شأنهم فى ذلك شأن القساوسة والأطباء .

وأسرع درفى يوجه الى بوكار اشارة من يده انصرف الكاتب على أثرها ، وبقى الرجلان معا . قال المحامى :

ـ انى يا سيدى لا أبخل بوقتى فى أثناء النهار ، اما فى منتصف الليل فدقائقى ثمينة . لذا ارجو منك الاختصار فى القول والدقة فى التعبير . اقصد الى الوقائع من غير لف ولا دوران ، وسأطلب منك بنفسى الايضاحات اللازمة لى . تكلم .

واجلس المحامى الشاب هذا العميل العجيب فى مواجهته ، وجلس هو الى المنضدة ، وراح وهو يستمع الى الحديث يقلب فى الملفات أمامه . قال الكولونيل :

ـ لعلك تعلم يا سيدى انى كنت أقود فرقة من الخيالة فى موقعة ايلو . ولقد كان نصيبى وافرا فى الهجوم المشهور الذى قام به مورا والذى تحقق بسببه النصر . ولقد شاء لى سوء الحظ ان يصبح مصرعى حدثا تاريخيا ثابتا فى النشرة العسكرية التى تحدثت عنه تفصيلا . لقد كانت الخطوط الروسية ثلاثة، فشطرناها شطرين ، ولكنها عادت فتجمعت واضطررنا الى اجتيازها مرة اخرى فى الاتجاه العكسى . وفى اللحظة التى كنا عائدين فيها الى حيث يوجد الامبراطور ، بعد أن شتتنا جمع الروس ، صادفتنى سرية من فرسان العدو ، فانقضضت على رجالها المعاندين . ولكن ضابطين روسيين عملاقين هاجمانى فى وقت واحد ، ووجه الى

احدهما ضربة سيف هائلة على ام راسى شــــقت كل شيء حتى القلنسوة الحريرية السوداء التى كانت تغطى راسى ، واحدثت فى جمجمتى شجا عميقا . ســـقطت عن جوادى ، واسرع مورا الى نجدتى فداسنى بخيله هو ورجاله جميعا ، الف وخمسمائة رجل، لا اكثر . وحمل نبأ مصرعى الى الامبراطور وكان لى فى قلبه مكان ، وقد اراد الامبراطور ان يحاول انقاذ حياة الرجل الذى كان السبب فى ذلك النصر العظيم . فأرسل اثنين من أطبائه للبحث عنى ونقلى الى حيث الرعاية والعلاج ، وقال لهما وسط مشاغله الكثـــيرة « اذهبا وانظرا اذا ما كان ضابطى المسكين شـابير حيا بعد » واذ رآنى الطبيبان على ما انا عليه ، بعد ان مرت فوقى خيول فرقتين كاملتين ، انصرفا من غير ان يمسا نبضى ، وقررا موتى بلا رجعة . وتحررت بعد ذلك شهادة وفاتى طبقا للقواعد المعمول بهــــا فى القانون العسكرى .

واذ سمع المحامى عميله يتحدث على هذا النحو الواعى العاقل ، ويروى هذه الوقائع المترابطة رغم غرابتها ، ترك ملفاته جانبا ، واستند الى المنضدة واضعا راسه بين يديه ، ونظر الى الكولونيل وقال له مقاطعا :

– هل تعلم ، يا سيدى ، انى محـامى الكونتيسة فيرو أرملة الكولونيل شابير ؟.

– زوجتى !.. نعم يا ســيدى . لذلك بعد جهود يائسة غير مجدية بذلتها طويلا لدى كثير من رجال القانون ، قررت أن آتى اليك . سأحدثك عن مأساتى فيما بعد . دعنى الآن أعرض عليك الوقائع واشرح لك كيف اتصور تسلسلها وتتابعها ، فهنـاك امور لا يعلمها الا الله يفرض على جهلى بها ان اذكرها بالحدس لا باليقين . اذن يا سيدى ، اقول افتراضا ان الجرح الذى اصبت به احدث لى حالة تسمم ، او ربما ازمة من تلك الازمات التى يطلقون عليها، فيما أظن ، اسم التخشب أو الموات . والا فكيف تفسر الاجراءات التى اتخذت وفقا لعادات الجيوش ، اذ جردت من ملابسى والقى



بى فى الحفرة المخصصة لدفن القتلى من الجنود ؟ وهنا ، ارجو ان تسمح لى بذكر واقعة لم تصل الى علمى الا بعد مرور وقت على الحادث الذى يسمونه موتى . لقد قابلت فى شتوتجارت سنة ١٨١٤ صف ضابط كان يعمل فى فرقتى من قبل ، وهوالانسان الوحيد الذى أقر بوجودى واعترف بى . سأحدثك عنه بعد قليل . لقد شرح لى هذا الصديق كيف قدر لى ألا أكون فى عداد الموتى . قال ان جوادى أصيب بقذيفة فى اللحظة التى أصبت انا فيها بضربة السيف ، وان الجواد والفارس سقطا على الأرض معا كتلة واحدة ، وشاء القدر ان استقر تحت جثة الدابة ، فحمانى ذلك من سنابك الخيل ومن القنابل معا . وعندما افقت يا سيدى وجدت نفسى فى وضع وفى جو قد لا يكفى الليل بطوله لأحدثك عنهما . لقد كان الهواء الذى اتنفسه قليلا وعفنا ، وحاولت ان احرك جسمى فلم اجد لذلك مكانا . فتحت عينى فلم أر شيئا . وكان انعدام الهواء المتجدد هو اقسى ما عانيت منه ، وهو الذى نبهنى الى خطورة ما انا فيه . فهمت فى الحال أنى لا محاولة ميت . وكان هذا الاحساس دافعا لى على نسيان الآلام المبرحة التى صاحبت صحوتى . وطنت اذناى طنا شديدا . وسمعت بل خيل لى انى سمعت انينا ينبعث من اكداس الجثث التى كنت غارقا وسطها . وعلى الرغم من الضباب الذى أحاط بتلك اللحظات المظلمة ، وعلى الرغم من انطماس ذاكرتى فى شأن هذه الاحداث ، وعلى الرغم من الآلام القاسية التى قدر لى ان القاها فيما بعد والتى ادخلت الاضطراب الى تفكيرى ، على الرغم من ذلك كله مازلت حتى اليوم فى بعض الليالى اسمع فى الخيال تلك التأوهات المكتومة وتلك الانات المختنقة . وما زلت أذكر ما هو أقسى وأبشع من الانات والتأوهات : ذلك الصمت الذى لم اصادف له مثيلا فى أى مكان آخر ، صمت القبور . ورفعت يدى ورحت أتحسس الموتى ، فأدركت ان فضاء يفصل ما بين رأسى وبين الركام الآدمى المكدس فوقى ، واستطعت أن أقيس الفجوة التى شاءت أقدار لا أدرى كنهها ان تتركها لى . يبدو ان العجلة او الاهمال او كليهما معا أديا الى تساند جثتين من فوق رأسى ، فكانت منهما زاوية كتلك

التى يحدثها اللاهى عندما يريد تشييد بناء من أوراق اللعب . ورحت احفر من حولى باظافرى فى عناء اليائس واندفاعه . ولحسن حظى عثرت على ذراع لم تكن متصلة بجسد ، ذراع كانت لعملاق شديد ، فكانت فيها نجاتى ، ولولاها لكنت من الهالكين . ورحت فى حماس لا حاجة بى لان اصفه لك ، احفر بتلك الذراع فى الجثث التى تفصل بينى وبين طبقة التراب التى لا شك قد اهيلت من فوقنا . معذرة يا سيدى ، انى اقول « فوقنا » وكاننا كنا احياء فى ذلك القبر !.. وبذلت جهدا فوق طاقة البشر .. وها انذا أمامك الآن ... غير انى لا أدرى حتى اليوم كيف استطعت اختراق جدار الأجساد الذى كان يفصل ما بينى وبين الحياة . قد تقول لى انى كنت استخدم اذرعا ثلاثا ... ربما .. لقد ساعدنى هذا المعول الذى كنت اعمل به فى مهارة على ايصال بعض الهواء الى من بين الجثث التى كنت احركها ، وحرصت على ان اكون شحيحا فى انفاسى . واخيرا رايت ضوء النهار ، ولكن من خلال طبقة ثلجية يا سيدى . عندئذ ادركت ان برأسى شجا كبيرا ، ولكن دمى او دم رفاقى او لعله دم الجواد الذى انبطح فوقى ، لست أدرى ، كان قد تجمد وصار كالجبيرة تحيط بالرأس. وعلى الرغم من هذه الضمادة اصابنى الاغماء عندما التقى رأسى بالثلج ؛ غير ان اثار الحرارة التى بقيت لى ساعدت على اذابة الثلج من حولى ، وعندما افقت وجدت نفسى على حافة صغيرة فاخذت اصرخ بقدر ما اتيح لى من صراخ . وكانت الشمس فى بدء شروقها . فايقنت ان لى املا فى ان يسمعنى احد . وانتصبت واقفا وانا استند بقدمى الى جثث الموتى التى تحجرت ، الى اجساد هؤلاء الأبطال الذين سقطوا . وما كنت لأطأ بقدمى هذه المقدسات لولا ما انا فيه . وكان الالمان يحتلون البقعة : وقد رأيتهم يهرولون فارين عند سماعهم صوتى فى هذا المكان الذى لا يرون فيه انسانا . واخيرا اخرجت من الحفرة ، التقطتنى امراة جريئة هالها أن ترى رأسى يبرز من باطن الأرض وكأنه نبتة عجيبة . واسرعت المرأة تنادى زوجها وتعاون الاثنان على نقلى داخل كوخهما . ويبدو انى عدت ثانية الى حالة الموات والتخشب وفقدت القدرة تماما على ادراك ما يحيط بى .

وظللت ستة اشهر بين الحياة والموت لا انبس ببنت شـــفة ، واذا تحدثت كان حديثى هذيانا . وفى نهاية الامر نجح منقـــذى فى ادخالى الى مستشفى هايلزبرج . لقد خرجت يا سيدى كمـــا تعلم من جوف الحفرة عريانا كما ولدتنى أمى ، ولما عادت الى ذاكرتى بعد ستة اشهر : وادركت فى صبيحة احد الايام انى الـــكولونيل شابير ، طالبت الحرس من حولى ان يعاملونى باحترام اكثـــر مما كانوا يبدونه نحو الكائن البائس فاقد العقل والتمييـــز الذى ركنته من قبل . فاغرق نزلاء المستشفى من حولى فى الضـــحك وراحوا يهزأون بى . وقد اراد الحظ لى أن يؤيد الطبيب شفائى الكامل بعد ان ابدى اهتماما بعلاجى ووجد فى اثبات برئى مفخرة له . وقد قصصت عليه حياتى السابقة ، ورويت له تفاصيلها بذهن رائق وعقل سليم . فاسرع الرجل ، وكان يدعى سباركمان ، الى تحرير وثيقة وفقا للاوضاع القانونية المعمول بها فى تلك البلاد ؟ اثبت فيها كيف خرجت باعجوبة من حفرة الموتى التى دفنت فيها حيا ، وحدد اليوم والساعة لانقاذى على يدى المراة وزوجها ،وابان نوع جروحى وموضعها ، واضاف الى ذلك وصفا كاملا لى . هذه الاوراق الهامة يا سيدى ليست فى حيـــازتى الآن ، لا ولا الاقرار الذى حررته امام الموثق فى هايلزبرج بقصد اثبات شـــخصيتى . ومنذ اليوم الذى طردت فيه من تلك البلد بسبب احداث الحرب ، وانا هائم على وجهى فى كل مكان طريدا مشردا ، اتسول لقمـــة الخبز ، ويتهمنى الناس بالجنون كلما قصصت عليهم قصتى . لم أجـــد نقودا ولم أكســـب صلدا واحدا لأتمكن من الحصـــول على الوثائق التى تثبت صدق قولى وتعيدنى الى حياة المجتمع . كم من مرة احتجزتنى آلامى واوجاعى شهورا طويلة فى بعض القوى التى تبذل فيها العناية للمرضى من الفرنسيين ، ولكنهم كانوا يسخرون منى كلما قلت لهم انى الكولونيل شابير . ولطـــالما اغاظتنى تلك الضحكات الساخرة واثارتنى ، فاساءت الى صحتى بل وادخلتنى المستشفى فى شتوتجارت باعتبارى من المجـــانين . هل ترى من حديثى معك الآن يا سيدى ما يبرر ايداع رجل مثلى مســـتشفى المجاذيب ؟ وقضيت هناك سنتين ، قضيتهما وآذناى لا تكفان عن

سماع الحراس يرددون فى كل يوم : « هذا الرجل المسكين يعتقد انه الكولونيل شابير ... ياله من بائس مجنون !.. » فى نهاية تلك المدة اقتنعت بعدم جدوى الاصرار على رأيى ، والتمسك بقضيتى ، وأصبقت حزينا صاغرا هادئا ، وأقلعت عن القول بأنى الكولونيل شابير . وكان هدفى من ذلك الخروج من السجن الذى كنت فيه ؛ والعودة الى وطنى فرنسا ورؤية باريس مرة أخرى .. آه يا سيدى .. رؤية باريس .. كم كان يراودنى هذا الحلم !.. وكم ضعفت امام تلك الرغبة الملحة !..

وعندما وصل الكولونيل شابير الى هذا الجزء من الحديث توقف عن الكلام ، وتاه فى التأملات . فاحترم درفى صمته ،وبعد برهة عاد الرجل يقول :

ـ فى أحد أيام الربيع أطلقوا سراحى ، ونفحونى عشرة ريالات ، وقالوا ان حديثى أصبح حديث الرجل العاقل تماما ، وانى لم أعد ازعم لنفسى شخصية الكولونيل شابير . وحقك يا سيدى ، لقد كنت فى تلك الفترة ، بل وما زلت فى بعض الاحيان حتى الآن ، امقت اسمى واكره ذكره . بودى لو كنت انسانا آخر غيرى . ان احساسى بما لى من حقوق هضمت يقتلنى كل يوم . لو ان المرض الذى أصبت به افقدنى ذكرى حياتى الماضية لكنت اليوم سعيدا هانئا ، ولكنت عدت الى الخدمة متخذا لنفسى اى اسم ، ومن يدرى ؟ . ربما كنت وصلت الآن الى رتبة الفلدمارشال فى النمسا او فى روسيا ..

قاطعه المحامى قائلا :

ـ لقد أشعت الارتباك يا سيدى فى أفكارى كلها .. لكأنى فى حلم بعيد وأنا اصغى اليك . بالله ، هلا توقفنا برهة ؟.

فرد عليه الكولونيل فى اكتئاب :

ـ انت الانسان الوحيد الذى اصغى الى فى صبر واناة . مامن واحد من رجال القانون رضى أن يقرضنى الجنيهات العشرة التى تتيح لى ان آتى من المانيا بالأوراق اللازمة لبدء قضيتى .

ونسى المحامى عند سماعه هذه الكلمات الاخيرة حالة الرجل المؤلمة وقال له :

ـ اية قضية ؟.

ـ كيف هذا يا سيدى ؟ أليست الكونتيسة فيرو زوجتى ؟انها تستولى على ايراد قدره ثلاثون الفا من الجنيهات هى ملك لى ، ولا تريد أن تعطينى صلدا واحدا . اننى حينما أذكر هذه الأشياء أمام المحامين وأمام العقلاء من الناس ، حينما أعرض أنا الفقير المتسول فكرة رفع الدعوى على كونت وعلى كونتيسة ، حينما أثور أنا الميت ضد شهادة الوفاة ، وعقد الزواج ، ووثائق الميلاد ، لا يكون حظى منهم الا الاعراض والطرد ، ويكون موقفهم منى اما ذلك الموقف المؤدب الجاف الذى تجيدون اتخاذه للتخلص من البؤساء والمحتاجين ، واما موقف العنف التى يلجأ اليه أولئك الذين يظنون انهم امام مجرم اثيم او مجنون خطير . لقد دفنت من قبل تحت جثث الموتى وها أنذا اليوم ادفن تحت اجسام الاحياء ،تحت الأوراق والوقائع ، تحت أقدام المجتمع بأسره الذى يريد أن يفنينى فى جوف الأرض .

قال المحامى :

ـ تفضل يا سيدى . اكمل حديثك الآن .

صاح الرجل العجوز المسكين وهو يمسك بيد الشاب :

ـ « تفضل » ! هذه هى المرة الأولى التى اسمع فيها كلمة مؤدبة منذ أن ..

وبكى الكولونيل وانحبست الكلمات فى حلقه .. وكان فى نظرته وفى حركته وفى صمته نفسه من البلاغة العميقة ما أثر فى دروفى كل التأثير واتم فى قلبه الاقتناع . فقال :

ـ اسمع يا سيدى ، لقد كسبت الليلة ثلثمائة فرنك فى القمار ، وفى استطاعتى ان اخصص من هذا المبلغ نصفه لاسعاد رجل مثلك . سأبدأ فى الحال الاجراءات والمساعى اللازمةلاحصل

لك على الأوراق التى حدثتنى عنها . والى ان تصل الينـــا تلك الأوراق سانقدك كل يوم مائة صلد لنفقتك . واذا كنت الكولونيل شابير حقيقة فسوف تغفر لى ضآلة هذا القرض ، مراعيـــا اننى شاب مازال يسعى الى شق طريقه نحو الثراء . والآن اكمـــل الحديث .

ظل الكولونيل برهة مشدوها لا حراك به . فلاشك ان البؤس الشديد الذى مر به قد هدم فى قلبه العقائد التى كان يؤمن بها . لعله وهو يسعى جاهدا الى اثبات امجاده العسكرية،والى استعادة ثروته ، والى ابراز شخصيته فى الوجود ، انما يستجيب الىذلك الاحساس المبهم الكامن فى اعماق الرجال جميعـــا ، والذى نحن مدينون له بابحاث الكيماويين ، وبشهوات السؤدد والمجـــد ، وباكتشافات الفلك والطبيعة ، وبكل الدوافع التى تحمل الانسان على السمو وعلى التكاثر بالاعمال والافكار معا . ونسى الكولونيل شابير نفسه ولم تعد ذاته تشغل فى ذهنه غير مكان قصى ، وغدا كالمقامر الذى يرى فى نشوة النصر ، أو فى لذة الكســب ، شيئا يسمو على قيمة الكسب نفسه . وهكذا كانت كلمات المحـــامى الشاب سحرا ومعجزة فى سمع هذا الرجل الذى تنـــكرت له زوجته ، ولفظته العدالة ، وتجهم له المجتمع باسره عشر سنوات طوالا . كيف قـدر لـه أن يجـــد عنـــد هذا المحـــامى تلك القطـــع الذهبيـــة العشر التى امتنـــع عليـــه نوالها كل هـــذا الوقت ، ورفضـــها عنه اناس عديدون بطـــرق عديدة ؟ . ما أشبهه بتلك المرأة التى ظلت خمسة عشر عاما تشكو الحمى ، فلما شفيت منها ظنت انها انما استبدلت مرضا بآخر . هناك الوان من الهناء لا يثق فيها صاحبها ، فما ان تحل به حتى تسقط عليه كالصاعقة فتحرقه وتدمره تدميرا .

وكان شعور الرجل بالجميل أقوى من ان يستطيع التعبير عنه فلاذ بالصمت حتى ليظنه الانسان جاحدا . ولكن درفى أدرك ما فى هذه النفس من صدق واخلاص ، وما خلف هذا السكوت وهـــذا التبلد من أحاسيس وانفعالات . فلو كان الرجل افاقا دعيا لوجد الى الكلام سبيلا .



ـ الى اين وصلت من الحديث ؟ ».

قالها الكولونيل فى براءة الطفل وسذاجة الجندى ، اذ كثيرا ما يغلب جانب الطفولة فى الجندى الباسل ، ودائما يغلب جانب الجندية فى الطفل الغرير .

رد عليه المحامى قائلا :

ـ الى شتوتجارت ، عند خروجك من السجن ».

وسأل الكولونيل :

ـ هل تعرف زوجتى ؟ .

فمال در فى برأسه جانبا وقال :

ـ نعم .

ـ كيف هى الآن ؟ .

ـ رائعة كشأنها دائما .

واشار العجوز بيده ، وبدا وكأنه يلوك فى صدره حزنا دفينا يحتمله فى صبر رهيب يتميز به كل الرجال الذين عرفوا الحرب وخاضوا المعارك واكتووا بالنيران وسط الدماء . ثم عاد الى متابعة الحديث متصنعا الابتهاج . ألم يخرج لتوه من غياهب القبر مرة أخرى ؟ . ألم ينجح لساعته فى تحطيم طبقة من الجليد أصلب من تلك التى جمدت رأسه من قبل ؟ . ألم يعد الآن الى استنشاق هواء عليل لم يذق له طعما منذ سنوات ؟ . قال :

ـ سيدى ، لو كنت شـــابا جميلا لمـا صادفتنى كارثة من الكوارث التى منيت بها . ان النساء يثقن فى اولئك الذين ينثرون فى أحاديثهم كلمات الحب . فـاذا ما سمعنها جرين وعـدون ، وضحين بأنفسهن ، واتين الحيل ، ولجأن الى الدسائس ، واكدن الوقائع ، ومشين مع الشيطان ، من أجل من أحببن . كيف كان يمكننى ان اجتذب الى نفسى اهتمام امرأة ؟ . لقد كان وجهى وجه اموات ، وكانت ملابسى أسمالا ، وكنت اقرب الى الاسكيمو شبها منى الى الرجل الفرنسى ، انا الذى كنت اعد فيما مضى ، عام

١٧٩٩ ، سيد المهندمين وأبرع المتأنقين ، يوم أن كنت شابير احد أعيان الامبراطورية البارزين ! .. القصد .. فى اليوم الذى طردونى فيه طرد الكلاب ، قابلت صف الضابط الذى حدثتك عنه من قبل! وكان اسم هذا الزميل بوتان . وكنا هو وانا اقفر صديقين رأتهما عين . لقد قابلته فى طريق النزهة ، وعرفته على التو ولكنه لم يعرفنى . وذهبنا معا الى احدى الحانات ، وهناك ما كدت اذكر له اسمى حتى انطلقت من فمه ضحكة كصـــوت المدفع . وقد أحزنتنى هذه الضحكة يا سيدى حزنا عنيفا ، فقد كشفت لى عن كل ما نالنى من تغيير . اأصـــبحت اذن مجهولا ، حتى لأقرب أصدقائى ، وأكثرهم تعلقا بى ، وأشدهم احساسا بالجميل لى ؟ . لقد أنقذت حياة بوتان فيما مضى ، وكان ذلك منى ردا لمعروف له أسداه الى . وكان ذلك فى ايطاليا ، فى بلدة رافنا . وكان البيت الذى حال فيه بوتان بينى وبين طعنة الخنجر الموجهة لى بيتا مشبوها لم أكن فى ذلك الوقت قد وصلت الى رتبة الكولونيل ، وانما كنت فارسا فقط مثل بوتان . لقد صاحبت تلك الحادثة ، لحسن حظى وقائع لم يعرفها غيرى وغير بوتان . فلما أن ذكرتها له تلاشـــت شكوكه ، وأيقن انى انا الكولونيل شابير حقيقة . وقصصت عليه ما صادفنى فى حياتى العجيبة . ولقد قال لى ان عينى اصابهما التغيير ، وان صوتى لم يعد كما كان ، وأن شعرى قد زال وكذلك أسنانى وحاجبى ، وان بشرتى قد تحولت الى لون المبروصين ، ولكنه بعد أسئلته العديدة التى وجهها لى اقتنع أخيرا أن الشحاذ الذى أمامه هو رئيسه القديم الكولونيـــل شابير . راح يقص على ذكرياته التى لا تقل غرابة عن ذكرياتى . لقد عاد من اقاصى الأرض من حدود الصين ، حيث أراد ان يذهب لاجئا بعـــد فراره من سيبيريا . وأبلغنى نبأ الكوارث التى أسفرت عنها حملة روسيا ، وتنازل نابليون عن العرش فى المرة الأولى . وكانت هذه الأنباء من أسوأ ما سمعته وقعا على نفسى . كنا انا وهو حطامين عجيبين بعد ان تقاذفتنا الحوادث على وجه الأرض ، كما تتقاذف الأمواج قطع الحجارة على شـــواطىء المحيطات .. لقد رأينـــا مصر وســـوريا واسبانيا وروسيا وهولاندا والمانيا وايطاليا ودلماسيا وانجلترا والصين

وبلاد التتار وسيبيريا ، ولم يعد ينقصنا غير الذهاب الى الهند والى امريكا ولما كان بوتان اصح مني جسما واوفر مني قوة ، فقد تطوع عني بالذهاب الى باريس مسرعا ، واخبار زوجتي بما انا عليه من حال وكتبت لمدام شابير رسالة بها كل التفصيل .. وكانت تلك هي الرسالة الرابعة مني اليها يا سيدي . لو ان لي اقارب ، لما وقع لي كل الذي حدث ، ولكن اعترف لك اني واحد من ابناء الملاجيء جندي لا مال له الا بسالته ، ولا أسرة له الا العالم جميعه ، ولا وطن له الا فرنسا ، ولا حامي له الا الله . لعلي قد اخطأت القول ، فقد كان لي أب ، هو الامبراطور ! .. آه ، لو كان موجودا هذا الرجل العزيز ! . ورأى ضابطه المحبوب شابير في حالتي هذه ! . اذن لنال منه الغضب كثيرا . هل من حيلة ، يا سيدي ؟ . لقد افل نجمنا وغربت شمسنا واصبحنا نقاسي البرد الآن . لقد التمست لزوجتي في صمتها المعاذير من ظروف السياسة وتقلباتها . وذهب بوتان . لقد كان اسعد مني حظا ، فقد كانت له دبتان بيضاوان مدربتان أكبر تدريب وتساعدانه على مواجهة تكاليف الحياة . ولم يكن في استطاعتي مصاحبته في هذه الرحلة ، اذ لم تسمح لي أوجاعي بالسير مسافات طويلة .. وقد بكيت ، يا سيدي ، عندما افترقنا بعد ان سرت الى جانبه والى جانب دبتيه قدر ما سمحت لي به قدماي . وفي بلدة كارلسورو أصبت بنوبة آلام في الراس وقضيت ستة أسابيع ملقى على القش في احدى الحانات .. قد يطول بي الحديث كثيرا ، يا سيدي ، اذا ما قصصت عليك كل المآسي التي تخللت حياة التسول التي عشتها . على ان الآلام النفسية التي تفوق في ضراوتها وقسوتها الآلام الجسيمة لا تثير في الناس الشفقة ، لأنها لا ترى . اني اذكر كم بكيت طويلا امام احد الفنادق في استرازبرج ، كنت قد اولمت فيه فيما مضى وليمة فاخرة ، ولم اجد فيه من بعد من يتصدق علي بكسرة من الخبز . وكنت قد رتبت مع بوتان خط السير الذي اتبعه في رحلتي البطيئة ، فكنت في كل بلدة احل بها ، اذهب الى مكتب البريد لأسال هل من

رسالة أو من نقود جاءت باسمى هناك . ووصلت الى باريس من غير أن اعثر على رسالة ولا على نقود . كم من مرة ساورنى اليأس وانتابتنى الهواجس ! . وكنت أسائل نفسى : هل مات بوتان ؟ . ولقد مات بوتان المسكين فعلا فى بلدة واترلو ، علمت بموته فيما بعد وبطريق الصدفة المحضة . لاشك ان وساطته لدى زوجتى لن تأتى بطائل . وأخيرا دخلت باريس فى اللحظة التى دخل اليها جنود القوزاق . وكان ذلك ألما جديدا يضم الى آلامى . وحينما رأيت الروس فى ارض فرنسا نسيت انى حافى القدمين خالى الوفاض . نعم يا سيدى ، فقد كانت ثيابى بالية . وفى الليلة السابقة على دخولى الى باريس اضطررت الى المبيت فى العراء فى غابة كلاى . وقد تسببت لى برودة الليل فى مرض ، لا أدرى ما هو ، ظهرت على اعراضه اثناء اجتيازى لضاحية سان مارتان فسقطت مغمى على عند باب أحد الحدادين . ولما أفقت وجدت نفسى على سرير فى المستشفى العام . وقضيت هناك شهرا سعيدا أخرجت بعده من المستشفى . كنت بلا نقود ولكن فى صحة جيدة ووسط شوارع باريس الحبيبة . سرت وملء قلبى السعادة الى شارع مونبلان حيث ظننت ان زوجتى تقيم فى قصر كان ملكا لى ولم اجد القصر ، فقد بيع وهدم وشيدت فى حدائقه عدة بيوت . ولما كنت اجهل أن زوجتى قد تزوجت من مسيو فيرو فلم استطع الحصول على اية بيانات . وأخيرا توجهت الى محام عجوز كان يرعى قضاياى فيما مضى ، فوجدته قد مات وخلف عملاءه الى شاب من زملائه . واخبرنى هذا الأخير ، وانا فى فرط الدهشة ، ان تركتى قد فتحت وصفيت ، وان زوجتى قد تزوجت ، وان ولدين ولدا لها من هذا الزواج . ولما ذكرت له انى الكولونيل شابير ، أصابته نوبة ضحك شديدة ، جعلتنى اتركه من غير إبداء أى اعتراض عليه . فقد تعلمت من مستشفى المجاذيب فى شتوتجارت ان اخشى مستشفى المجاذيب فى باريس ، وقررت ان يكون سعيى فى

حرص وحيطة . ولما ان عرفت محل اقامة زوجتى توجهت اليها والأمل يملأ قلبى ..

وتوقف الكولونيل لحظة ثم عاود بعدها الكلام وفى صوته حنق شديد :

ـ هل تصدق يا سيدى ؟ . حينما استعرت لنفسى اسما تقدمت به لم احظ بمقابلتها ، وحينما تسميت باسمى اغلق بابها فى وجهى . وقد اضطررت لأتمكن من رؤية الكونتيسة وهى عائدة من المرقص أو المسرح عند الفجر ، ان أقضى الليالى الطوال قابعا الى جوار الحجر القائم عند باب قصرها . وكانت عيناى تغوصان داخل عربتها ، التى تمرق من أمامى مروق السهم الخاطف ، وبها تلك المرأة التى كانت زوجة لى ولم تعد من نصيبى اليوم .

وفجأة انتصب الرجل واقفا أمام درفى وصرخ فى صوت مخنوق :

ـ منذ ذلك اليوم لم أعد اعيش الا للانتقام ، للانتقام وحده انها على علم بوجودى . وقد تلقت منى منذ عودتى رسالتين كتبتهما بنفسى . انها لم تعد تحبنى ، أما أنا فأجهل اذا كنت أحبها او أمقتها .

انى موزع بين الرغبة فيها وبين لعنها . انها مدينة لى بكل ما تتمتع به الآن من ثروة وهناء ، ومع ذلك رفضت ان تمد الى يد العون وان تلقى الى بمساعدة مهما صغرت . اراني احيانا لا ادرى ما الذى اصنعه ..

وهنا القى الكولونيل العجوز بنفسه على المقعد ، وعاد الى صمته وسكونه . وظل درفى لا يفتح فمه بكلمة ، وهو يحدق النظر فى الرجل المنهار امامه . وبعد برهة قال :

ـ ان القضية خطيرة . وحتى لو فرضنا صحة الأوراق الموجودة فى هايلزبرج ، فلست أرى ما يدل على الوصول الى نتيجة من أول الأمر . ستنظر الدعوى امام محاكم ثلاث على

التوالى يجب التفكير فى هدوء فى قضية كهذه لها هذا الطابع الاستثنائى .

رفع الكولونيل رأسه فى كبرياء عند سماعه هذه الكلمات وقال فى صوت هادىء :

ـ سيدى ، اذا فشلت ، فانى اعرف كيف أموت . ولكن لن أموت وحدى .

وغاب الرجل العجوز فى خيالاته ، ولمعت عيناه بنار الرغبة وحب الانتقام معا . وعاد المحامى يقول :

ـ ربما اضطررنا الى عرض الصلح وقبول الترضية .

فقال الكولونيل شابير :

ـ الصلح والترضية ؟ .. هل انا ميت أم أنا حى ؟ ..

وقال المحامى :

ـ هل آمل منك يا سيدى أن تتبع ما سوف اقدمه لك من نصح وتوجيه ؟. ستكون قضيتك قضيتى ، وستتحقق بنفسك قريبا من الاهتمام الذى سأوجهه لحالتك هذه ، التى لا مثيل لها فى تاريخ القضاء . والى ان نبدأ العمل سأعطيك رسالة منى الى الموثق المشرف على شئونى ليسلمك بايصال منك خمسين فرنكا كل عشرة أيام فليس مما يليق بك ان تحضر الى هنا لتلقى هذا العون . واذا كنت الكولونيل شابير حقيقة فأنت أرفع من ان تعوزك الحاجة الى أحد . سأجعل من هذه المبالغ قرضا . فأنت رجل لك أموال سوف ترد اليك . انت رجل ثرى .

هبطت تلك الكلمات الرقيقة بردا وسلاما على قلب الرجل العجوز ، فانحدرت العبرات من عينيه ..وأسرع درفى واقفا ، فليس من عادة المحامين أن يبدو على وجوههم التأثر والانفعال . وانتقل الى غرفة مكتبه ، ثم عاد منها بعد لحظة وبيده رسالة مفتوحة سلمها الى الكولونيل شابير . وحينما أمسك الرجل المسكين

بالرسالة بين اصابعه أحس فى داخلها بقطعتين ذهبتين .

وقال المحامى :

ـ وهل لك أن ترشدنى الى بيان الأوراق ، وأن تذكر لى اسم البلدة واسم المملكة التى هى تابعة لها ؟ .

أخذ الكولونيل يملى على المحامى البيانات التى طلبها . ويصحح له أسماء الأماكن والأشخاص . ثم تناول قبعته بيد . ونظر الى درفى ، ومد له يده الأخرى ، يدا خشنة قوية . وقال له فى صوت هادىء رزين :

ـ والله ، يا سيدى ، ستكون أنت ، بعد الامبراطور ، الرجل الذى أدين له بكل شىء . أنت رجل شجاع .

وصافح المحامى الكولونيل ، ثم اصطحبه حتى اول السلم ، وهو يضىء له الطريق . ثم عاد وقال لكبير كتبته :

ـ لقد سمعت الآن ، يا بوكار ، قصة تكلفنى ربما خمسة وعشرين جنيها . فاذا كنت قد وقعت ضحية رجل نصاب سرقنى ، لن أندم على ما ضاع من نقودى ، لأنى أكون بذلك قد شاهدت أبرع ممثل فى هذا العصر .

لما أصبح الكولونيل فى الشارع ، تحت أحد المصابيح ، أخرج من الرسالة القطعتين الذهبيتين اللتين أعطاهما المحامى له ، وراح ينظر اليهما مليا فى الضوء .. ها هو ذا ينظر الى الذهب ويلمسه للمرة الأولى منذ تسع سنوات كاملة .. وقال لنفسه :

ـ ها أنذا استطيع الآن أن أدخن السيجار بعد طول الحرمان.

بعد انقضاء أشهر ثلاثة على تلك الزيارة الليليه التى قام بها الكولونيل شابير لدى المحامى درفى ، حضر عند هذا الأخير الموثق الذى كلف بدفع المعونة الى هذا العميل العجيب . جاء يستشيره فى احدى القضايا الهامة . وفى بدء حديثه معه طالبه بدفع مبلغ ستمائة فرنك قدمها لحسابه الى الرجل العجوز .

وكان هذا الموثق ، ويدعى كروتا ، شـــابا اشترى منذ وقت قريب المكتب الذى كان يعمل به كبيرا للكتبة ، بعد ان فر صاحبه على اثر عملية افلاس شـــنيعة ارتكبها . وقال الموثق الشـــاب لصديقه المحامى وهو يضحك :

ـ ها أنت الآن تتسلى بالانفاق على رجال الجيش القديم ..
فرد عليه المحامى قائلا :

ـ اشكرك يا صديقى العزيز اذ ذكرتنى بهذا الموضوع .. لن تتعدى أريحتى ولن يتجاوز كرمى حدود الخمسة والعشرين جنيها اخشى ان تكون وطنيتى قد خدعتنى وغررت بى .

فى اللحظة التى ختم فيها درفى كلامه هذا راى على منضدته اللفافات التى وضعها كبير كتبتـــه هناك . ولفت نظره شـــكل الأختام المستطيلة والمربعة والمثلثة ، بألوانها الحمراء والزرقاء ، التى وضعتها مـــكاتب البريد البروسية والنمساوية والبافارية والفرنسية على رسالة من بين تلك اللفافات . فضحك وقال :

ـ ها نحن نقترب من نهاية المهـزلة .. سنرى اذا كنا قـد خدعنا أم لا ..

وتناول الرسالة ثم فضها ، ولكنه لم يستطع قراءتها ، فقـد كانت مكتوبة باللغة الألمـانية ، فأسرع الى باب مـــكتبه وفتحـه ومد الرسالة الى كبير كتبته وهو يقول :

ـ اسرع يا بوكار بنفسك ، خذ هذه الرسالة واحصل لى على ترجمتها ، وعد الى بلا ابطاء ..

انه موثق برلين الذى كتب اليه المحامى من قبل ينبئه بأن صور الوثائق التى طلبها سوف تصل اليه بعد أيام قليلة من وصول تلك الرسالة .. وقال الموثق فى رسالته ان الوثائق المذكورة قانونية تماما وتحمل جميع التصديقات اللازمة لامـكان الاحتجاج بها أمام القضاء . وقال ايضا ان الشهود الذين أقروا بصـحة المحاضر التى حررت ، مازالوا جميعهم تقريبا على قيـــد الحيـاة فى بلدة ايلو

البروسية ، وان المراة التى يدين لها الكونت شابير بالحياة مازالت تعيش حتى تلك اللحظة فى احدى ضواحى مدينة هايلزبرج ٠

ما كاد بوكار ينتهى من عرض ملخص الرسالة على مسامع المحامى درفى حتى صاح هذا الأخير قائلا :

ـ أصبح الأمر جادا ٠٠

ثم التفت الى الموثق كروتا وقال له :

ـ هلا قلت لى يا صديقى ؟٠٠ سأحتاج الى بعض البيانات التى توجد بغير شك فى مكتبك ٠٠ ألم يكن ذلك النصاب العجوز روجان هو ٠٠٠

فأسرع الموثق كروتا يقاطع صديقه وهو يضحك ويقول :

ـ بل اننا نسميه دائما « روجان المسكين سيء الحظ » ٠٠

ـ ٠٠٠ ألم يكن روجان المسكين سيء الحظ ، الذى اختلس من عملائه ثمانمائة الف فرنك ، وأنزل الخراب والبؤس بكثير من الأسر ألم يكن هو الذى أشرف على تصفية تركة شابير ؟ يبدو انى قرأت شيئا من هذا القبيل فى الأوراق الخاصة بقضايا فيرو عندى ٠٠

رد عليه كروتا :

ـ نعم ٠٠ كنت فى ذلك الوقت الكاتب الثالث ٠ وأذكر انى درست هذه التصفية جيدا ونسخت كثيرا من الأوراق الخاصة بهاء روز شابوتل زوجة وأرملة هياسانت الشهير باسم شابير ٠٠ كونت شابير ٠٠ حامل رتبة الفارس فى جوقة الشرف ٠٠ كانا متزوجين بغير عقد مالى ، فأموالهما اذن مشاع بينهما ٠ واذا لم تخنى الذاكرة فان أصول التركة قدرت بستمائة ألف فرنك ٠ وكان الكونت شابير قبل زواجه قد أوصى وصية يترك بها عند وفاته ربع ثروته لمستشفيات باريس والربع الثانى للدولة ٠٠ وقد تمت القسمة فعلا وبيعت التركة ووزع ثمنها بين المستحقين ، اذ أن المحامين وقتئذ أبدوا فى هذا الشأن نشاطا ليس من عاداتهم ٠ وقد شاء الوغد الذى كان يحكم فرنسا فى ذلك الوقت ان يصدر مرسوما

وهب به الى أرملة الكولونيل الجزء من التركة الذى كان من حق الضرائب ..

- اذن .. لا تتجاوز ثروة الكونت شابير الشخصية الثلاثمائة الف فرنك ؟..

فرد عليه كروتا ممازحا :

- ها أنت يا صديقى قد أصبت التقدير .. انكم أنتم أيها المحامون ترون أبعد مما يرى الناس ، وان كانت لكم قدرة على الدفاع اليوم عما كنتم تهاجمونه بالأمس ، مع المهارة الكاملة فى الحالتين على السواء ..

قرأ المحامى فى اسفل الايصال الأول الذى قدمه له الموثق العنوان الذى يقيم فيه الكونت شابير : ضاحية سان مارسو ، شارع بيتى بانكييه ، طرف المدعو فرنيو ، وهو أحد صف الضباط القدماء فى الحرس الامبراطورى ، أصبح فيما بعد علافا للمواشى . وقد اضطر درفى الى التوجه الى هذا العنوان بحثا عن عميله ، وذهب الى هناك راجلا بعد أن رفض الحوذى سلوك الطريق غير الممهد ذى الحفر العميقة التى يتعذر على العربة السير فيها .. ووقف المحامى يدير نظره فى جميع الاتجاهات .. وأخيرا اكتشف فى أحد جوانب الطريق ، بين حائطين أقيما من الطين وفتات العظام ، عمودين من الحجارة ، قد نالت منهما عجلات العربات ، وأحدثت فيهما شقوقا على الرغم من الحواجز الخشبية المحيطة بهما . وفى أعلى العمودين استعرضت كتلة تعلوها قشرة من القرميد ، وقد كتب عليها هاتان الكلمتان باللون الأحمر : « فرنيو - علاف » .. والى جوار الكلمتين من اليمين رسمت صورة كومة من البيض .. ومن اليسار صورة بقرة حلوب ، وقد خطت هذه الرسوم كلها باللون الأبيض .. كان الباب مفتوحا ، ويبدو انه يظل كذلك اليوم بطوله وفى الفناء الواسع ، فى مواجهة الباب ، يقوم بيت متهالك من تلك البيوت التى ترى فى ضواحى باريس ، والتى لا يمكن مقارنتها

بأصغر المنازل المقامة فى الريف ، والتى تشاركها فى مظهر الفقر والبؤس ، من غير أن تقاسمها الشـــاعرية والجمال ٠٠ ذلك ان الأكواخ الريفية ، وسط الحقول ، تتمتع بالحسن الذى يضفيه عليها الهواء العليل ، والخضرة اليانعة ، ومنظر الزرع والتلال ، والطرق الملتوية ، والكروم المتسلقة ، والحشيش النامى ، والعشب الجاف وأدوات الفلاحة ٠٠ أما فى باريس فهول الفقر لا يزيده بشاعة الا قبح المنظر ٠٠ وبدا هذا البيت ، رغم حداثة بنائه ، متداعيا منقضا وما من مادة استخدمت فى اقامته ووضعت فى مكانها الصحيح ٠٠ وانما كانت كلها من نتاج عمليات الهـدم التى تتوالى كل يوم فى أنحاء باريس ٠٠ ألم يقرأ درفى على عارضة احدى النوافذ حروفا تشير الى أن هذه القطعة كانت فيمـا مضى جزءا من لافتة لحانوت يبيع الملابس ؟ ٠٠ ولم تكن النوافذ متشابهة فيما بينها ، ولا موزعة توزيعا منسقا ٠٠ وكانت حجرات الطابق الأرضى مرتفعة من جهـة غاطسة من جهة أخرى ٠٠ وفيما بين هـــذا البيت وباب الدخول انتشرت بركة مملوءة بالسباخ ، تتجمع فيها مياه المطر ومياه الدار معا ٠٠ وانتشرت على الحائط الذى يستند اليـه البيت ، والذى يبدو أقوى من الحوائط الأخرى ، مجموعة من الصناديق المخرمة سكنتها أسرات عديدة من الأرانب سريعة التـــكاثر ٠٠ والى يمين الباب أقيمت حظيرة المواشى يفصلها عن البيت مكان اللبن ويعلوها مخزن العلف ، والى يساره امتد بيت الدواجن واسطبل الخيل ٠٠ وسقيفة الخنازير ، وقد صنعت ، كما صنع سقف البيت نفسه من ألواح الخشب القلقة ، جمعت الى بعضها بالمسامير ، وغطيت بالقش والغاب الجاف ، وقد لاحظ درفى فى ذلك الفنـاء دلائل العجلة والاندفاع التى تنبىء عن العمل فى وقت معين ، كما هو شأن جميع الأماكن تقريبا التى تعد فيها عناصر الوجبـة الهائلة التى تلتهمها باريس كل يوم ٠٠ فهنا تلك الأبنية الكبيرة من الصفيح المعوج التى تنقل فيها الألبان ، وهناك أوعية القشدة مبعثرة فى أحد الأركان مع سداداتها البيضاء ٠٠ والخرق الممزقة التى تستعمل فى تنظيف تلك الأوعيـــة تتأرجح منشورة فوق الخيوط المنصوبة على أوتاد

لتجف فى الشمس . وفى وسط الفناء أمام الاسطبل المغلق وعلى بعد خطوات من العربة وقف حصان من ذلك النوع الذى لا وجود له الا عند بائعى اللبن ، بينما راحت عنزة نحيفة تأكل أوراق الكرمة الذابلة المتربة ، التى تغطى جانبا أصغر مشققا من جدار البيت .. وانكفأت هرة على أوعية القشدة الفارغـــة تلعقهـا .. وانزعجت الدجاجات عندما اقترب درفى منها فطارت صارخة ، وعندئذ أطلق كلب الحراسة نباحا مسعورا ..

قال المحامى لنفسه بعد أن مر بنظره على هذا المشهد الكريه :

ـ أيمكن أن يكون هنا مقام الرجل الذى كان له فضل النصر فى موقعة ايلو ..!

وكان البيت فى حراسة غلمان ثلاثة ، صعد أحدهم الى أعلى العربة المحملة بالعلف الأخضر ، وراح يقذف بقطع الأحجار الى فوهة مدخنة البيت المجاور ، آملا بذلك أن تسقط الأحجار داخل قـدر الطبخ .. أما الثانى فقد انصرف الى خنزير يجره بعنف نحو عربة أخرى مالت حافتها حتى مست الأرض ، بينما تعلق الثالث بالعربة من ناحيتها الأخرى مستعدا لجذبها الى أسفل متى استقر الخنزير عليهـا ..

ولـما سألهم درفى عما اذا كان مسيو شابير يقيم فى هذا المكان لم يجبه منهم أحد ، ونظروا كلهم اليه فى بله وخبث ، اذا جاز أن يجتمع الخبث مع البله . أعاد عليهم السؤال ، ولكنه لم يفز منهم بطائل . ولما نفد صبره مع هؤلاء الأشقياء الثلاثة ، وجه اليهم بعض تلك السـباب الممـزوجة بالدعابة التى يظن الـكبار أن من حقهم توجيهها الى الصغار ، فخرج الغلمـان من صمتهم مطلقين ضحكة عالية ، غضب لها درفى ، وسمع الـكولونيل الضجة ، فخرج من غرفة صغيرة منخفضة تجاور مكان الألبان ، وظهر على عتبة الباب فى تجهم عسكرى صارم ، وهو ممسك بشفتيه غليونا من الفخار

الابيض الرخيص . ورفع عن عينيه حافة قبعته التى كساها الوسخ فرأى درفى ، واخترق بركة السباخ مسرعا نحوه ، وهو يصرخ فى الغلمان آمرا : « صمت هناك فى الصفوف ! .. » وفى الحال خفتت اصواتهم ولزموا اماكنهم امتثالا لطلب الضابط العجوز .

وقال شابير للمحامى :

ـ هلا كتبت لى قبل مجيئك ؟ . سر الى جوار الحظيرة . من هنا الطريق ممهد .

وكان المحامى حذرا فى سيره ، مترددا ، يخشى ان تبتل نعلاه فى المستنقع .

وقفز درفى من موضع الى آخر الى أن وصل أخيرا الى عتبة الباب الذى خرج منه الكولونيل . وظهرت على شـابير دلالات الاستياء لاضطراره الى اسـتقبال ضيفـه فى تلك الحجرة التى يسكنها . فلم يكن فى الغرفة غير مقعد واحد ، وكان الفراش بعض حزمات من القش ألقيت فوقها خرقتان أو ثلاث ظاهـرة البلى من ذلك النسيج السميك الذى يستعمله بائعو اللبن كغطاء لعرباتهم . أما أرض الغرفة فلم تكن الا طينا مدهوكا ، بينما انتشرت العفونة والأملاح والشقوق فى عرض الحوائط ، فشاعت فيها الرطوبة . واضطر الكولونيل الى تحصين الحائط الذى ينام الى جواره بحصير من الغاب . وكان المعطف القديم ، الذى رأيناه من قبل على كتفى الرجل العجوز ، معلقا بمسمار فى احد الأركان ، ومن تحته زوج متيق من الأحذية الطويلة ملقى على الأرض . ولم ير المحامى فى الغرفة اثرا لاى نوع آخر من الثياب ، وانما لفت نظره فوق المنضدة المتداعية مجموعة نشرات الجيش الأمبراطورى الكبير ، التى اعيد طبعها حديثا . فهى على ما يبدو القراءة الوحيدة التى يقبل عليها الكولونيل والتى يقضى فيها نهاره كله . وكان شابير بادى الهدوء والانشراح ، وقد غيرت زيارته الأخيرة الى درفى ملامح وجهه بعد أن أدخلت السكينة الى قلبه وأشاعت فيه أنوار الأمل .

قدم الكولونيل الى محاميه المقعد المتهالك وهو يقول له :

ـ أرجو الا تضايقك رائحة غليونى .

ـ ولكن ياكولونيل ، انت تعيش فى اسوء حال هنا .

قال المحامى هذه العبارة بدافع الجرأة فى اللفظ التى هى من خصـائص ابناء مهنته جميعا ، والتى اكتسبوها على اثر خبرتهم الطويلة بمآسى النـاس ، واطلاعهم على مكنون الأفئـدة واسرار النفوس .

وقال درفى فى نفسه :

ـ لا شك ان هذا الرجل قد استغل مالى فى اشباع النزوات الأساسية الثلاث التى يخضع لها كل عسـكرى : القمار والخمر والنساء ! ..

رد عليه الكولونيل :

ـ حقيقة ، ياسيدى . نحن هنا لا نعيش فى الترف والنعيم .. انها حياة المعسكر الجافة التى لا يخفف من قسوتها غير الصداقة والمودة .. ولكن ..

وهنا وجه الرجل العجوز نظرة عميقة الى رجل القـانون ثم استمر يقول :

ـ .. ولكننى لم أوذ احدا قط ، ولم اصرف احـدا عن بابى ، وانام قرير العين مستريح الضمير .

وراى المحامى انه من غير اللائق السؤال عن اوجـه استخدام المبالغ التى اقرضها الكولونيل ، فاكتفى بالقول :

ـ لماذا لم تقدم الى باريس لتعيش فيها ؟ لا شك أنك تستطيع أن تحيا هناك بمثل النفقة التى تنفقها هنا ، ولـكن فى راحة اوفر وظروف احسن .

فرد الكولونيل قائلا :

ـ ولكن اهل هذا المكان أناس طيبون ، آوونى وأطعمونى مجانا

لوجه الله طوال عام كامل • فكيف اتركهم وقد تيسر لي بعض المال ؟
هذا فضلا عن ان والد هؤلاء الغلمان الثلاثة مصرى قديم ••

ـ مصرى ؟ •• ما معنى هذا ؟ ••

ـ نحن نطلق هذا الاسم على افراد القوات المحاربة الذين عادوا من حملة مصر التى ساهمت فيها • انها اخوة صادقة تربط مابين قلوب جميع الذين عادوامن تلك الحملة . فضلا عن ذلك فقد كان فرنيو هناك واحدا من افراد الفرقة التى اقودها ، وقد تقاسمنا معا جرعة الماء فى هجير الصحراء القاتلة . وعلى كل حال فانا لم انته بعد من تعليم هؤلاء الاطفال القراءة ••

ـ ألم يكن فى استطاعته ، مقابل ماتدفعه له من نقود ، ان ييسر لك مقاما أسعد من هذا المقام ؟

قال الكولونيل :

ـ لابأس • ان اولاده ينامون مثلى على القش • وليس لزوجته ولا له هو نفسه فراش احسن من فراشى هذا • انهم قوم فقراء ، فقراء جدا . وقد اشتروا هذا المكان الذى يفوق طاقاتهم وعملوا فى هذا العمل الذى تنوء به قدراتهم . ولكن ، اذا قدر لى أن أسترد ثروتى .. فسوف .. لا داعى لهذا الكلام ..

ـ يا كولونيل ، سأتلقى غدا أو بعد غد أوراقك من هايلزبرج •• ان المرأة التى انقذتك من الموت مازالت حية ترزق ؟••

ـ لعن الله المال ! •• وبئست حاجتى اليه !••

قالها الكولونيل فى غضب والقى بغليونه على الارض ••

ليس أثمن عند المدخن من غليونه الذى استعمله كثيرا من قبل . ولكن القاء شابير لغليونه على الأرض حدث نتيجة لاندفاعة طبيعية ، واستجابة لثورة نبيلة قامت فى نفسه ، حتى ليغفر له

المدخنون جميعا تلك الزلة الشنيعة . ولعل ملائكة السماء قد جمعت بايديها فى تلك اللحظة قطع الفليون المتناثرة .

نهض درفى قاصدا الخروج من الحجرة والذهاب للسير فى الشمس بجوار البيت ، وهو يقول :

ـ يا كولونيل ، يبدو ان قضيتك شديدة التعقيد .

فرد عليه الكولونيل :

ـ بل انى أراها يسيرة لا تعقيد فيها . لقد ظنونى ميتا وهأنذا حى .. أعيدوا الى زوجتى وثروتى ، واعطونى رتبة الجنرال فهى من حقى ، فقد رقيت الى رتبة الكولونيل فى الحرس الامبراطورى قبل موقعة ايلو بأيام ..

وعاد درفى يقول :

ـ ليست تعالج الأمور بمثل هذه البساطة فى عالم القضاء . أنت الكونت شابير ، لا اعتراض لى على ذلك . ولكن يجب اثبات هذا قضائيا فى مواجهة اناس من مصلحتهم انكار وجودك . وسوف يثير النقاش حول هذا الموضوع عشرة أو اثنى عشر دفعا من الدفوع التمهيدية ، وستسير هذه الدفوع جميعا متلازمة حتى تصل الى المحكمة العليا ، فينشأ عدد مماثل من القضايا كثيرة التكاليف . وسوف يطول النزاع فى هذه القضايا مهما بذلت فى انهائها من جهد واسراع . ومن المؤكد أن خصومك سيطلبون اجراء تحقيق فى دعوانا ، ولن نستطيع الاعتراض على هذا الطلب ولا رفض اجراء التحقيق ، وربما اقتضى الأمر اللجوء الى انابة قضائية فى بروسيا . ولكن ، حتى اذا افترضنا احسن الفروض ، وسلمنابسرعة اقرار القضاء لوجودك واعترافه بأنك الكولونيل شابير فعلا ، فلسنا ندرى كيف يكون الحكم فى جريمة تعدد الازواج التى ارتكبتها الكونتيسة فيرو ببراءة وعن غير قصد . أن النقطة القانونية فى قضيتك تقع خارج نطاق القانون الوضعى ، ولن يستطيع القضاة

أن يفصلوا فيه الا بالاستناد الى قانون الضمير ، كما يفعل المحلفون في المسائل الدقيقة التى تثيرها المفارقات الاجتماعيــة فى بعض القضايا الجنائنة . أنت لم ترزق بأولاد من زواجك ، بينما انجب الكونت فيرو ولدين من زواجه ، وقد يتجه القضاة الى ابطال الزواج الذى به أضعف الروابط ، فى صالح الزواج الذى به أقواها ،طالما توفر حسن النية لدى الزوجين . فهل مما يفيد مركزك الأدبى أن تصر ، مع ما أنت فيه من سن ومن ظروف ، على المطالبة باسترداد زوجة لم تعد تحبك ؟ انك بذلك سوف تثير ضدك زوجتك وزوجها وكلاهما ذو نفوذ له القدرة على التأثير فى هيئة المحكمة . ترى اذن أن عوامل الاســتطالة والبطء قد تجمعت كلها فى هذه القضية ؟ وستقضى أياما مريرة فى الحزن والأسى .

ـ وثروتى ؟ .

ـ هل تعتقد أن لك ثروة كبيرة ؟ .

ـ ألم يكن لى دخل قدره ثلاثون الف جنيه ؟ .

ـ ياعزيزى الكولونيل ، لقد أوصيت فى سنة ١٧٩٩ ، قبل أن تقدم على الزواج ، وصية تركت بها ربع أموالك للملاجىء ..

ـ هذا صحيح .

ـ اذن ! .. ألم يكن من الضرورى ، بعد أن اعتبرت فى عداد الموتى ، أن يعمل جرد لاموالك وأن تصفى تلك الأموال لتحصل الملاجىء على ربعها ؟ ولم تتعفف زوجتك عن خداع المســاكين من نزلاء الملاجىء ، فأغفلت من الجرد ذكر النقود السائلة والمجوهرات ، ولم تثبت فيه غير القليل من الأوانى الفضية ، وبخست ثمن الاثاثات الى ما دون الثلث من قيمتها الحقيقية . ولعلها ارادت بذلك زيادة نصيبها من التركة ، أو خفض مقدار الضرائب والرسوم عليها . ولما كان المقدرون الرسميون هم المسئولون عن تقديرهم ، فقد أسفر الجرد الذى عمل على هــذه الصورة عن مبلغ ستمائة الف فرنك هو قيمة التركة ، وكان نصيب زوجتك شرعا فى ذلك النصف .

وعرض كل شيء للبيع فاشترته زوجتك وفازت بالتركة كلها ؛ وحصلت اللاجيء على الخمسة والسبعين الف فرنك التي تخصها. ولما كانت خزينة الدولة ترثك قانونا ، لأنك لم تخص زوجتك بشيء في وصيتك ، فقد أصدر الامبراطور مرسوما نزل به الى أرملتك عن الجزء الذي كان من نصيب المال العام . والآن ؟ ما الذي تستحقه انت ثلاثمائة ألف فرنك فقط تخصم منها المصاريف .

وشده الكولونيل لهذه البيانات القانونية الطويلة فقال :

ـ وهل تسمى هذا عدلا ؟..

ـ بالتأكيد ..

ـ يا له من عدل ؟ ..

ـ هذا هو الواقع ، يا صديقي الكولونيل . وهكذا ترى أن ما ظننته سهلا بسيطا ليس كذلك . بل ربما تمسكت مدام فيرو برغبتها في الاحتفاظ بالجزء الذي منحها اياه الامبراطور .

ـ ولكنها لم تكن أرملة وقت صدور المرسوم . هذا المرسوم باطل ..

ـ اني معك في ذلك . ولكن التقاضي طويل الحبال . اصغ الي جيدا . في مثل ظروفنا هذه ، في رأيي ، يعتبر التصالح خير حل لهذا النزاع ، واسلم مخرج لك ولها معا . وسوف تحصل عن طريق الصلح على مبلغ يزيد كثيرا عن كل ما قد يؤول لك قانونا .

ـ معنى هذا اني ابيع زوجتي بالمال .

ـ بايراد قدره أربعة وعشرون الفا من الفرنكات ، ومع ما أنت عليه من وضع الآن ، سوف تعثر على نساء أليق بك من هذه الزوجة ، واقدر منها على اسعادك . اني قررت الذهاب اليوم الى الكونتيسة فيرو لسبر أغوارها ، والتعرف على استعدادها ونواياها . ولكني قبل الأقدام على هذا المسعى ، أردت ان أخبرك به .

ـ لنذهب معا اليها ..

واعترض المحامى قائلا :

ـ بالحالة التى انت عليها الآن ؟.. كلا ، يا سيدى الكولونيل، كلا .. قد يؤدى بنا ذلك الى ضياع قضيتك ضياعا مبرما ..

ـ لماذا ؟ أليست قضيتى عادلة ، يمكن كسبها ؟.

ـ انها كذلك من جميع النواحى . ولكن ، يا عزيزى الكولونيل شابير ، أنت غافل عن نقطة هامة . أنا لست غنيا ، ومازلت مدينا بأقساط أسددها من ثمن مكتبى . واذا قررت المحكمة ان تمنحك معاشا مؤقتا ، أى مبلغا من المال تتقاضاه خصما من ثروتك ، فهى لن تقضى لك بذلك الا بعد الاعتراف لك بصفاتك كاملة ، وهى انك الكونت شابير حامل وسام الفارس فى جوقة الشرف .

ـ حقا ، أنا أحمل وسام الفارس فى جوقة الشرف . كيف جاز لى ان أنسى ذلك وان اغفل عنه ؟.

وبدت على الكولونيل علامات البراءة وهو يلقى بهذه الكلمات . وعاد درفى يقول :

ـ اذن .. الى أن يتحقق ذلك ، ألسنا مضطرين الى المرافعة والمدافعة ، ودفع الرسوم اللازمة للقضايا وللمحضرين ، وتسديد المطلوبات عن الاحكام ، الى جانب نفقات الحياة نفسها . ان مصاريف القضايا التحضيرية لن تقل بحال من الأحوال فى مجموعها عن اثنى عشر أو خمسة عشر ألف فرنك . وانا لا املك هذا المبلغ خصوصا وانى مرهق بالفوائد الباهظة التى ادفعها لمن اقرضنى المال الذى اشتريت به مكتبى . وانت ، من أين لك الحصول عليه ؟.

انحدرت عبرات غليظة من عينى الرجل العجوز الذابلتين ، وقد ركبه اليأس عند سماعه هذه الصعاب وهذه العقبات الهائلة .. ها هو عالم القضاء يتحالف مع المجتمع عليه . انهما يضغطان معا على صدره ، ويثيران فى قلبه كابوسا قاتلا .

وبعد برهة صمت صاح الكولونيل :

ـ سأذهب الى قاعدة النصب القائم وسط ميدان فاندوم ، وهناك سأصرخ فى الناس قائلا :

ـ انا الكولونيل شابير الذى بدد شمل صفوف الروس فى موقعة ايلو .. وسيعترف بى الصخر والحديد ان لم يعترف بى الناس .

ـ وسيلقون بك بلا شك فى مستشفى المجاذيب .

واذ سمع الرجل هذه العبارة هبط حماسه ، وتلاشت ثورته ، وعاد يقول متوسلا :

ـ ألا يمكن ان يكون لى شىء من الحظ لدى وزارة الحرب ؟.

فقال درفى :

ـ مكاتب الموظفين ؟ . اذا أردت أن تتوجه اليها فلا تذهب الا وبيدك حكم قانونى سليم يقرر الغاء شهادة وفاتك . ولا تنس ان هم الحكومة الآن هو التمكن من القضاء بلا رحمة على كل من انتسب فى يوم من الأيام الى الامبراطورية .

ظل الكولونيل لحظة مشدوها لا يأتى حراكا ، ينظر بعينين لا تريان شيئا ، متهالكا فى يأس لا قرار له . لقد ركز آماله كلها فى وقت من الأوقات على القضاء العسكرى ، فهو قضاء صريح سريع يفصل فى المنازعات بغير لف ولا دوران ، وتكاد أحكامه أن تكون دائما جيدة ، فضلا عن أنه لم يعرف قط محاكم أخرى فى حياته غيره . لقد أحس الرجل المسكين بضربة قاتلة توجه فيه الى تلك القدرة التى تميز بها الانسان والتى يسمونها الارادة ، وذلك بعد أن أدرك مقدار العقبات والصعاب التى تعترض طريقه ، ومقدار النقود اللازمة له للوصول الى حقوقه واثبات وجوده . وتيقن من إستحالة الحياة عليه وهو غارق فى عالم التقاضى والمحاكم ، فرأى أن من الخير له ألف مرة ومن الأيسر أن يبقى كما هو فقيرا شحاذا ، وان يخدم كفارس فى بعض الفرق اذا رغب أحد فيه . لقد ناله من جراء آلامه المادية والمعنوية عور فى بعض اجزاء جسمه أصاب

منه اعضاء لها اهميتها وخطرها ، فهو قاب قوسين أو أدنى من ذلك المرض الذى سكت الطب عن تسميته ، والذى يسعى مركزه متنقلا مع الجهاز العصبى ، اكثر اجهزة الجسم تعرضا للاصابة . إنه مرض الاكتئاب النكدى أو الحزن الناتج عن توالى المصائب . وايا كانت درجة الأصابة بهذا الداء الخفى ، الذى لا ينكر احد حقيقة وجوده ، فهو ليس مستعصى العلاج ، ويكفى للبرء منه توفيق المريض به فى أمر من أموره ، وتحقق النجاح له فيه . يكفى ان يهز جهازه العصبى هزا عنيفا عن طريق عائق جديد يزلل ، أو حادث غير متوقع ينتهى بسلام ، فينحل كيان الأوهام المتراكمة فى ذهنه ، وتتهاوى فيه العقد والاندفاعات المبهمة التى يلاحظها علماء النفس عادة لدى الاشخاص الذين حصرتهم الاحزان .

ولاحظ درفى علامات الانهيار واليأس على عميله فعاد يقول له :

ـ تشجع يا صديقى . ان خاتمة هذه الدعوى ستكون فى مصلحتك بالتأكيد . كل ما هنالك أنى أطلب منك أن تمنحنى ثقتك كاملة ، وان تقبل بغير جدال النتائج التى سوف أرى ان فيها الخير كله لك . فهل فى استطاعتك ذلك ؟ .

فقال شابير :

ـ افعل ما بدا لك ..

ـ هذا حسن . ولكن أراك تستسلم الى كمن يستسلم للجلاد الذى يسوقه الى الموت ؟ .

ـ ألست مقضيا على أن ابقى هذه الفترة بغير وجود وبغير اسم ؟ .. هل تظن ذلك يسيرا على نفسى ؟ .

فرد عليه المحامى قائلا :

ـ انى لا ارى رأيك هذا . سنسعى وديا للحصول على حكم بالغاء وثيقة وفاتك وعقد زواجك . وبذلك تسترد حقوقك . بل قد

تحصل ، بفضل نفوذ الكونت فيرو ، على أمر بادراج اسمك فى كشوف ضباط الجيش القدامى برتبة جنرال . وستحصل بغير شك على المعاش المناسب لك .

عندما سمع شابير هذا الكلام قال :

ـ انت وما تريد . أني واثق بك كل الثقة .

وعاد درفى يقول :

ـ سأبعث اليك بتوكيل لتوقع عليه . وداعا يا كولونيل . تذرع بالشجاعة والصبر . واذا احتجت الى نقود ، فلك ان تعتمد على فى ذلك .

وشد شابير فى حرارة على يد المحامى ، وظل واقفا مسندا ظهره الى الحائط مكتفيا فى تشييعه بالنظر فقط . وكان ، ككل من يجهل الشئون القضائية ، يتوجس خيفة من هذا الكفاح الذى لا يدرى عن نهايته شيئا .

كان هناك طوال هذا الحديث رجل فى الطريق ، واقف الى جوار الباب ، وقد أطل برأسه مرات من خلف الجدار ، وكأنه ينتظر خروج درفى . واذ خرج المحامى أقترب منه الرجل يستوقفه . وكان رجلا عجوزا يكتسى سترة زرقاء فوقها رداء أبيض مما يلبسه العمال ، وقد غطى رأسه بقبعة صغيرة من الجلد . وكان وجهه الأسمر كثير الحفر والتجاعيد ، تعلوه تلك الحمرة التى تنشأ عن طول العمل فى الهواء الطلق . وقال الرجل لدرفى وهو يمس ذراعه :

ـ عفوا يا سيدى ، اذا سمحت لنفسى بالتحدث اليك . ولكنى ايقنت حينما رأيتك انك بلا شك صديق لصديقنا الجنرال .

فقال له المحامى :

ـ حسن . . ما الذى يعنيك من أمره ؟ . من أنت ومن تكون ؟ .

ـ أنا لويس فرنيو . وأريد أن أقول لك كلمتين .

ـ انت اذن الذى تستضيف الكونت شابير على هذه الصورة الحقيرة ؟..

ـ ارجو معذرة يا سيدى ، لقد افردت له اجمل غرفة عندى . ولو ان لى غرفة أخرى لتركت له غرفتى ، ولرضيت انا وزوجتى بالنـوم فى الحظيرة . يا له من رجل نبيل قاسى الوان العـذاب جميعها !.. انه يعلم اولادى القراءة !.. هذا الجنرال .. هـذا المصرى .. اول ضابط خدمت تحت قيادته .. وقاسمته الحياة طويلا .. كلا ، انه أكثرنا متعة من حيث السكنى . لقد أعطيته خير نصيب مما أمتلك ، وما أمتلك جد قليل لسوء حظى .. بعضا من الخبز واللبن والبيض .. الحياة قاسية ويجب ان نحياها .. ولكنى أقدم له ذلك بنفس راضية وقلب مستريح . ولكنه أسـاء الينا .

ـ هو ، أساء اليكم ؟.

ـ نعم ، يا سيدى . أساء الينا اساءة كبيرة . لقـد اشتريت هذا المكان وهو فوق طاقتى وانا انوء بتكاليفه . وقد لاحظ هو ذلك وحزن له كثيرا ، وأخذ يعنى بجوادى ويمشطه ، فقلت له : « لا ، يا سيدى الجنرال » . فقال لى : « دعك من هذا . لا اريد ان أبقى عاطلا بلا عمل ، ان تمشيط الخيل وخدمتها مهنتى من زمن بعيد »

لقد وضعت اسمى على عدة أوراق هى ثمن حظيرتى هذه .. وقعت عليها لصالح من يدعى جرادوس . هل تعرفه يا سيدى ؟.

ـ يا عزيزى ، لا وقت لدى اضيعه فى سماع ما تقول . قل فقط كيف أساء الكولونيل اليك ؟.

ـ أساء الينا يا سيدى . نعم اساء الينا ؛ حتى لقد بكت زوجتى وحزنت . لقد علم من الجيران اننا لا نملك صلدا واحد من قيمة اول ورقة علينا . ولم يقل الرجل الطيب العجوز شيئا ، وانما جمع كل ما اعطيته انت من مال وانتظر قدوم المطالب بقيمة الورقـة ودفع له ما اراد ، من غير ان يذكر لنا ذلك . وقد اساء الينا بهذا .

وزوجتى وانا نعلم كل العلم انه بغير طباق ، هذا الرجل الطيب ، وانه كف عن التدخين . اما الآن فانا اشترى له الطباق كل صباح. انى اود لو استطعت ان ابيع نفسى لاحصل له على الطباق . لا.لا. لقد اساء الينا . لذلك اريد ان اعرض عليك يا سيدى ان تقرضنا بعض المال . لقد قال لنا الجنرال انك رجل كريم طيب القلب .. خمسمائة فرنك ، أو ما يقرب من ذلك ، بضمان ملكنا هذا . حتى نستطيع أن نعد له بعض الملابس وان نؤثث له غرفته هذه . لقد ظن انه يوفى لنا بدين عليه ، أليس كذلك ؟. ولكنه فى الحقيقة جعلنا مدينين له..مدينين له بالكثير .. فأساء الينا .. ماكان يجدر به ان يهيننا هكذا .. ولا أن يسىء الينا . والصداقة التى بيننا ؟. اليست لها قيمة ؟. أقسم لك بشرفى يا سيدى أننى سوف أفضل الموت على الا أرد لك هذا المبلغ ..

ونظر درفى الى الرجل برهة ، ثم خطا خطوات الى الخلف ليعيد النظر الى البيت وفنائه ، والى السباخ والحظيرة والأرانب والأطفال ثم قال :

ـ ان من الخير والله ، فى رأيى ، الا يكون المرء مالكا لمثل ما تملك . لا عليك !.. ستحصل على الخمسمائة فرنك التى تريدها، بل واكثر منها اذا شئت . لا تظن اننى انا الذى سأعطيها لك .. كلا .. ان الكولونيل غنى ، وسيكون فى استطاعته ان يساعدك . وليس من حقى ولا فى نيتى ان احرمه هذه السعادة .

ـ هل يتم ذلك قريبا ؟.

ـ نعم .

ـ يا الهى ! . كم ستسر زوجتى لهذا النبأ ! .

وظهرت السعادة على وجه العلاف الأسمر .

وعندما هم درفى بركوب عربته قال يخاطب نفسه :

ـ والآن ، لنذهب الى خصمنا . يجب الا نكشف له شيئا من خطتنا ، وان نحاول التعرف على خطته . لنربح الجولة من الضربة الأولى . هل من الخير لنا ان نخيفها ؟. انها امراة . فما الذى يخيف النساء أكثر من غيره ؟ . ان النساء لا يخفن الا من ..

وراح يدرس وضع الكونتيسة وظروفها . وانهمك في هـذا النوع من التفكير العميق الذي ينتاب فطاحل السياسيين ، وهم يرسمون خططهم ، ويحاولون الكشف عن خفايا الأعداء وأسرارهم . أو ليس المحامون من بعض الوجوه نوعا من رجال السياسة مكلفين بشئون الأفراد الخاصة ؟ . ولعل نظرة نلقيها هنا على وضع الكونت فيرو وزوجته تعيننا على فهم الترتيبات التى اعدها المحامى درفى، وأدراك الأسلوب الماكر الذى عول على الأخذ به .

كان الكونت فيرو سليل أحد مستشارى برلمان باريس القدامى، هاجر الى الخـارج فى عهد حكومة الارهاب ، فأنقذ بذلك عنقـه وأضاع ثروته كلها . ثم عاد الى البلاد فى عهد حكومة القنصلية ، وظل على ولائه للملك لويس الثامن عشر الذى عاش أبوه بين أفراد حاشيته قبل الثورة . وهكذا كان الكونت واحدا من سكان حى سان جرمان الذين قاوموا اغراءات نابليون ، وفضلوا الكرامة على المال . واشتهر الرجل فى عهد نابليون بالكفاءة النادرة والاستقامة الدقيقة ، الأمر الذى اجتذب اليه انتباه الامبراطور ، فحاول ان يضمه اليه . وكثيرا ما كان نابليون يسعد بانتصاراته على رجال الارستوقراطية القديمة قدر سعادته بالمواقع الحربية التى يخرج منها ظافرا . وبذلت الوعود للـكونت فيرو ، وجاءته التلميحات بامكان استعادة لقبه واسترداد أملاكه التى لم يتم بيعها بعد . بل لوح له على البعد بأحد المناصب الوزارية ، أو بأحد مقاعد مجلس الشيوخ . ولكن تلك المحـاولات كلها من جانب الامبراطور باءت بالفشل . وكان السيد فيرو عند اذاعة نبأ وفاة الكونت شـابير فى السادسة والعشرين من عمره ، شابا لا ثروة له ، جميل المظهر ، ناجحا فى المجتمع ، معدودا من ألمع الشخصيات التى تقطن حى سان جرمان الارستقراطى العتيد . أما ارملة الكونت شابير فقـد أحسنت ادارة الأموال التى انتقلت اليها بالميراث من زوجها ، حتى أصبحت بعد انقضاء ثمانية عشر شهرا فقط على ترملها صاحبة دخل يقدر بحوالى أربعين الف جنيه . ولم يقابل زواجها من الـكونت الشاب بحماس زائد بين أفراد مجتمع سان جرمان . ولكن نابليون

انشرح صدره لهذا الزواج الذى يحقق احدى رغباته فى مزج القديم المعاند بالحديث الثورى . فأسرع يرد الى مدام شابير جانب التركة الذى كان من حق الدولة . وفشل الامبراطور أيضا فيما كان يرمى اليه . اذ أن الكونتيسة لم تجد فقط من زوجها الشاب العشيق الذى كانت تصبو اليه ، وانما أغراها أيضا هذا الزواج على الولوج الى داخل ذلك المجتمع المغلق المتعالى ، الذى كان على الرغم من عزلته وتباعده يسيطر من بعيد على البلاط الامبراطورى كله ، ويحكم تصرفاته وتقاليده . لقد وجدت الكونتيسة فى هـذا الزواج كل ما يحقق أطماعها وشهواتها معا ، وكل ما يمهد لها الطريق لتصبح احدى سيدات المجتمع . ولمـا تحقق ارستقراطيو سان جرمان من أن زواج الكونت الشاب لم يكن خيانة لمبادئهم ولا تنكرا لآرائهم ، أسرعوا يفتحون أبواب صالوناتهم أمام زوجته .. وانهـار الحكم الامبراطورى وعاد مكانه الحكم الملكى القديم . ولم يسرع الكونت فيرو الخطو فى طريق السياسة ، فقد كان على علم بعدم ثبات مركز لويس الثامن عشر ، وكان من بين أولئك الواعين الذين فضـلوا الانتظار الى أن يغلق باب الثورات تماما . وكانت هذه السياسة الحريصة عقيدة الكثيرين فى ذلك الوقت .

على أن الأمر الملكى الذى سبقت الاشارة اليه فى مستهل هذه القصة أعاد الى الكونت فيرو مســاحتين من الغابات وقطعة من الأرض ، بعد ان تضاعفت هذه الأملاك كثيرا فى فترة الحراسـة عليها . وكان الكونت فى ذلك الوقت يشغل وظيفة المستشار فى مجلس الدولة مع درجة المدير العام ، الا انه لم يكن يرى فى ذلك المنصب الا بداية الطريق السياسى الذى يريد سلوكه . وقد حمله طموحه ودفعته مطامعه الى ان يتخذ لنفسه كاتما لأسراره يقوم على خدمته ورعاية مصالحه . فاختار لذلك محاميا قديما مفلسا ، يدعى دلبيك . وكان دلبيك هذا خبيثا ماهرا ملما بطرق المشاكسة وبأسرار الحيل والمنازعات . ولم يلبث ان تولى شئون مخـدومه الخاصة كلها ، وأخلص له الأخلاص كله ، لا لأمانة فيه ، ولا لصدق نواياه ، وانما لحاجة فى نفسه وتدبير يسعى اليه . فقد كان يطمع



فى منصب يناله بفضل نفوذ الرجل الذى ترك له ادارة أمواله كلها .
وقد استطاع بفضل تفانيه فى عمله ، وحرصه على مصالح الكونت ،
ان يبدد الشائعات التى ترددت من حوله ، وان يلبسه ثوب المظلوم
المفترى عليه .

وقد عرفت الكونتيسة بالحدس الذى تتميز به النساء عادة وبالأحساس الذى هو من طبيعتهن ما يرمى اليه وكيل أعمال زوجها . فراحت ، وهى ترقبه عن قرب ، تستغل منه مهارته وخبرته ، حتى توصلت عن طريقه الى مضاعفة ثروتها الخاصة . فقد نجحت في ايهام دلبيك انها تسيطر تماما على ارادة زوجها . وان فى استطاعتها ، اذا ما أخلص فى خدمتها ، ان تحصل له على منصب رئيس لاحدى المحاكم الابتدائية فى بلدة من كبريات بلاد فرنسا . وقد أحدث هذا الوعد فى قلب الرجل الطموح ما أرادته الكونتيسة منه ، وبات يحلم بزواج فيه الثراء ، يتلوه بعد قليل ذيوع الصيت فى عالم السياسة والوصول الى مقعد النيابة . ولم يلبث دلبيك بذلك أن أصبح شيطان الكونتيسة الرجيم . فلم يترك فرصة واحدة من الفرص العديدة التى اتاحتها البورصة وجاءت بها تقلبات الاسعار الهائلة فى باريس خلال السنوات الثلاث الأولى والتى تلت عودة النظام الملكى ، ألا وانتهزها لتفيد منها مدام فيرو . وقد توصل بذلك الى مضاعفة ثروتها مرات ، وساعدته هى فى هذا الأمر ، ولم تكن تتورع عن سلوك كل الطرق لزيادة اموالها . فقد كان من دأبها أن تخصص لنفقات المنزل ما يحصل عليه الكونت من مرتبات وتحتفظ بايرادها الخاص تكدسه وتنميه بشتى الطرق . وكان دلبيك يساعد على ذلك من غير ان يحاول اجتلاء أسباب هذا البخل والتقتير .. فأمثال هذا الرجل لا يهمهم من الأسرار الا ما يتعلق بأطماعهم ومصالحهم الذاتية . وكان يكتفى من الأمر بأن يعلله بما جبلت عليه الباريسيات دائما من جشع مفرط وحب لا حد له للذهب والمال . وكان يظن احيانا ان حرص الكونتيسة وجريها وراء الثروة الطائلة لا قصد منهما الا مساندة اطماع زوجها واستجابة الى نوازع الحب التى تكنها له .

أما الكونتيسة فقد كتمت أسرارها فى صدرها ، وحرصت على الا تبوح بمكنون نواياها لاحد . وجعلت من هذا الأمر مسألة حياة أو موت بالنسبة لها ، وفى ذلك تكمن العقدة من هذه القصة .

وفى اوائل سنة ١٨١٨ بدأ النظام الملكى العائد فى فرنسا وكانه وطيد الاركان ثابت البنيان ، وظن ذوو العقول المستنيرة ان البلاد مقبلة على عهد جديد من الرخاء السابغ والثراء العميم . وعندئذ غير المجتمع الباريسى من نظرته للحكم ، وأقبل على الملك العائد يحيط به ويتقرب اليه . واكتشفت الكونتيسة فيرو فجأة أنها اقدمت على زواج فيه الحب والثراء والطموح . ولما كانت ما تزال شابة رائعة الجمال ، فقد القت بنفسها فى حياة الترف وعاشت فى أجواء البلاط الملكى . وسرعان ما أصبحت ، بفضل ثروتها الخاصة ، وبفضل مركز زوجها ، من سيدات المجتمع الارستقراطى ، تساهم فى رواثه وتشارك فى ترفه . ألم يكن زوجها من اقدر رجال الحزب الملكى ؟. ألم يكن صديق الملك ؟. ألم يكن يتوقع له الجميع الوصول قريبا الى كرسى الوزارة ؟. ومع ذلك اصيبت الكونتيسة وهى فى أوج مجدها وفى قمة عظمتها وتألقها بداء نفسى عضال ، أشد من السرطان فى ضراوته . فهناك من المشاعر والأحاسيس ما تكشف عنه المرأة بسليقتها مهما بذل الرجل من جهد ومداراة لاخفائه . فبعد عودة الملك الأولى قامت فى قلب الكونت فيرو بعض الهواجس حول زواجه وندم على اقترانه من ارملة الكولونيل شابير التى لم تأت له بالنسب العريض الذى كان يطمع فيه . وجد نفسه وحيداً بلا سند ولا معين يأخذ بيده فى الطريق الوعر الذى اعتزم السير فيه . طريق كله عقبات ، يحف به الأعداء من كل جانب . ولعله أدرك الى جانب ذلك ، بعد أن خبر زوجته ودرس طباعها ، أنها تفتقر الى ذلك النوع من التربية والاعداد الذى يستطيع أن يعينه على تحقيق نواياه . وقد أفلتت من الزوج ملاحظة عابرة حول زواج الوزير تاليران ، وكانت فيها الكفاية لتنبيه الزوجة الى ما يجول فى خاطره ، فأدركت أنها ، لو قدر لها أن تعيد زواجها مرة ثانية ، لما أصبحت فى يوم من

الأيام مدام فيرو .. وهل من زوجة تسكت على وجود مثل هـذا الشعور في قلب زوجها ؟ . الا تجد فيه اهانة لها ومسا لكرامتها وخطرا يهدد حياتها الزوجية ؟. ومما زاد من خوف الكونتيسة من توجسها ، خشيتها من عودة زوجها الأول . لقد علمت انه حي يرزق ، وتنكرت له ، ورفضت وساطاته اليها . ولما ان انقطعت عنها اخباره لفترة من الزمن بعد ذلك ، ظنته قد قتل في موقعة واترلو، مع صديقه بوتان ، وغيرهما ممن ظلوا على الوفاء لنابليون .

على ان الكونتيسة وطدت العزم على جعل زواجها من الكونت فيرو رابطة لا انفصام لها ، رابطة اساسها الذهب والمال ، ولحمتها وسداها المصلحة المادية . ارادت ان تكون من الثراء والغنى بحيث يتعذر فك عروة زواجها الثاني ، اذا ما حدث وعاد زوجها الأول الى عالم الوجود . وها قد عاد الكونت شابير ، ولكنها لا تدري السبب الذي من أجله لم تبدأ بعد المعركة العنيفة التي خشيتها وأكثرت من الاستعداد لمواجهتها .. لعل الأوجاع والأمراض قد انقذتها منه الى الأبد ! . بل لعله الجنون أو شبه الجنون ! . وفي هذه الحالة سوف يأتيها الخلاص من بين جدران مستشفى المجاذيب .

وقد حرصت الكونتيسة على عدم اشراك دلبيك او البوليس في هواجسها واسرارها .. والا جعلت منهما على نفسها سيدا ، او عجلت بوقوع الكارثة التي تخشاها . وهناك في باريس كثيرات من النساء مثل مدام فيرو ، يعشن وفي صدورهن مثل هذا الوحش الضاري المجهول ، ويسرن على حافة الهاوية . وتراهن مع ذلك قادرات على ستر ما بهن من داء ، وعلى مداومة الضحك واللهو والحياة .

خرج درفي من تأملاته العميقة في اللحظة التي توقفت به العربة في شارع فارين عند باب قصر فيرو ، وقال لنفسه :

ــ هناك امر غريب في حالة الكونت فيرو . كيف به ، وهو على ما هو عليه من الثراء ، وبرغم ما بينه وبين الملك من صداقة لم يصل بعد الى مقاعد مجلس الشيوخ ؟ . وبما كان الملك حقيقة ،

كما علمت من مدام دى جرانليو ، حريصا كل الحرص على الاحتفاظ لمقاعد الشيوخ بهيبتها ، فهو لا يسرف فى منحها ، وابن احد مستشارى البرلمان ليس على كل حال ممن يولدون ولهم حق الجلوس فى مقاعد الشيوخ . فاذا طمع الكونت فيرو فى الوصول الى هذه المقاعد فلن يكون له ذلك الا بطريق الحيلة والواسطة . فاذا ما الفى زواجه الا يصبح فى استطاعته تحقيق مأربه هذا بمصاهرة واحد من أعضاء المجلس الأعلى ممن تقدمت بهم السن ، ولم يرزقوا غير البنات ؟ . وسوف يرضى الملك عن ذلك كل الرضا ويسر له كل السرور . .

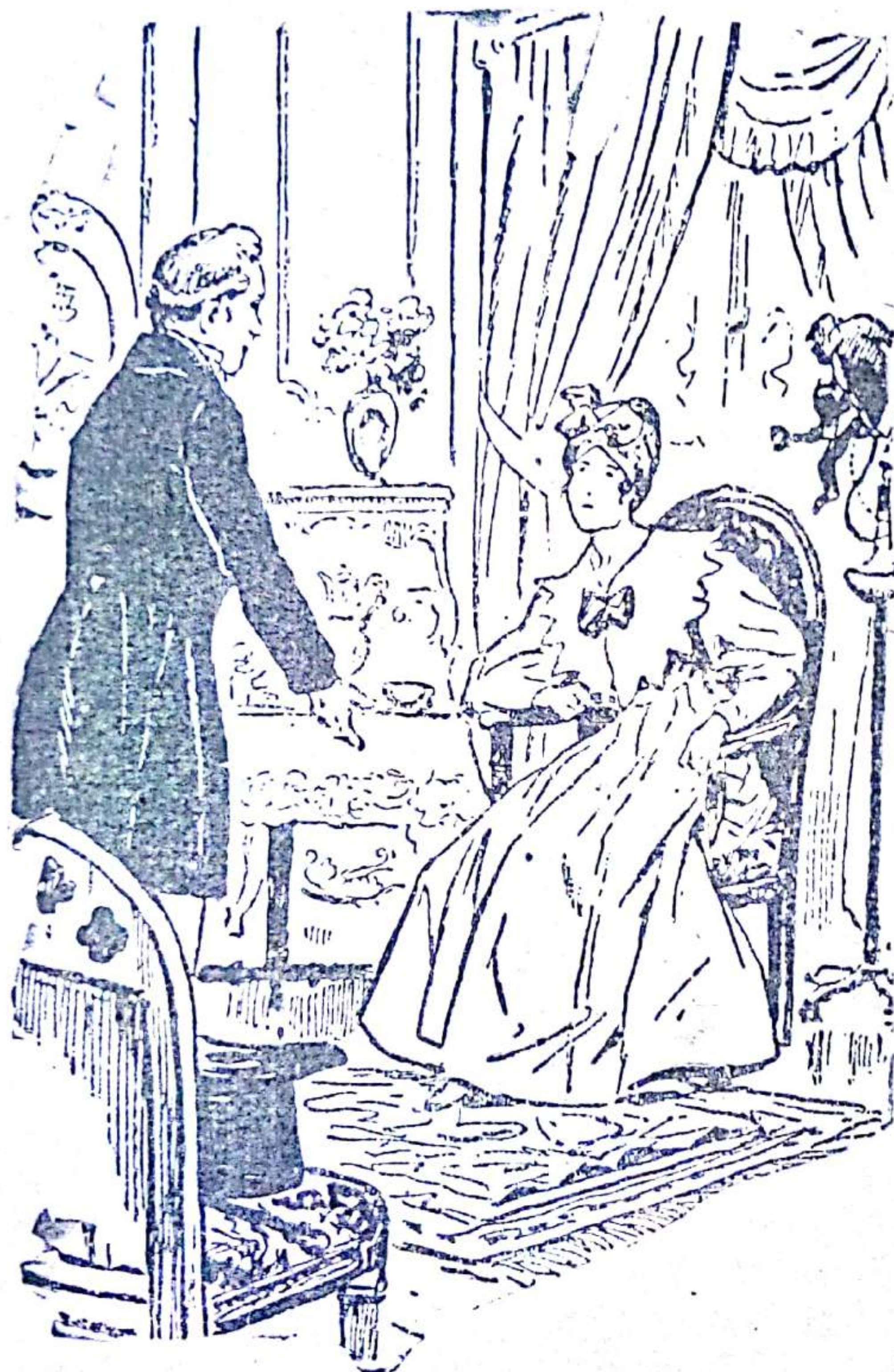
واختمرت هذه الفكرة فى ذهن المحامى الشاب ، فقال يخاطب نفسه وهو يرقى سلم الشرفة المؤدية الى القصر :

ـ لا شك ان هذه حيلة رائعة يمكن استخدامها لادخال الرعب على قلب الكونتيسة .

وكان درفى بذلك قد مس باصبعه من غير ان يدرى الجرح الدامى فى قلب الكونتيسة ، ووصل الى مكمن الداء منها .

استقبلته مدام فيرو فى غرفة طعامها الشتوية الانيقة ، وهى تتناول غداءها ، وتداعب قردا صغيرا ربط بسلسلة الى عمود انتشرت على جوانبه العوارض الحديدية . وكانت تتدثر برداء منزلى رائع وقد عقصت شعرها فى اهمال ، فتناثرت خصلاته من عصابة على رأسها ، وبدت جميلة ، ضاحكة ، مشرقة . وكانت المائدة أمامها تعج بالآنية الفضية والبللورية ، بينما تناثرت فى أرجاء الغرفة زهور عجيبة الأشكال والألوان فى أوعية من الخزف الثمين .

وحينما رأى المحامى زوجة الكونت شابير تنعم بهذا البذخ ، وتتمتع بثروته على هذا الوجه ، وتحتل من المجتمع مكانا رفيعا ، بينما يعيش المسكين عالة على علاف فقير ، يشارك المواشى حظائرها قال فى نفسه :



ـ ان فى ذلك لعظمة كبرى ؟ هى ان المراة الحسناء لن تقبل ابدا الاعتراف بزوجها ، بل ولا بعشيقها ، فى شخص رجل يتسربل بالمعطف العتيق ، ويكسو رأسه بشعر مستعار كانه القش الجاف وينتعل حذاء ينفذ منه الماء .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة لاذعة تعبر عما يجول فى ذهنه من افكار تخالط الفلسفة فيها جميع الوان الدراية ، وهو الرجل القادر على سبر اغوار الأمور ، وعلى اختراق حجب الكذب والرياء ، التى تخفى معظم الأسر الباريسية خلفها حياتها ومآسيها .

قالت الكونتيسة من غير ان تكف عن تقديم القهوة لقـردها الصغير :

ـ صباح الخير ، يا مسيو درفى .

واستاء المحامى من هذا الأسلوب الفج الذى اســتقبلته به الكونتيسة ، فبادرها بقوله من غير ان يرد لها التحية :

ـ سيدتى ، جئت لاحدثك فى امر ذى بال .

ـ يحزننى كل الحزن ان يكون الكونت غائبا ..

ـ أما انا فيسعدنى ذلك يا سيدتى . فقد يـكون من الحزن حقا ان يسمع الكونت ما سوف يدور من حديث بيننا . وقد علمت من دلبيك انك تفضلين دائما مباشرة شئونك بنفسك ، من غير ان تقلقى بها سيدى الكونت .

ـ اذن ، سأدعو لك دلبيك .

قال ذرفى :

ـ قد لا يفيدك دلبيك شيئا ؟ على الرغم مما اوتى من مهارة وحذق اصغى الى يا سيدى ؟ كلمة واحدة تسمعينها منى سوف تجعلك جادة الكونت شابير موجود .

انطلقت من فمها ضحكة عالية وهى تقول :

هل تريد من ذكرك لمثل هذه السخافات أن تجعلني جادة ؟ ».
ولكن الكونتيسة سرعان ما الجمت أمام النظرة الصافية المطمئنة التى وجهها اليها دروفى ، وكأنه يخترقها بعينيه ويقرأ ما فى قرارة نفسها . وبعد برهة قال لها فى صوت رزين هادىء :

ـ سيدتى ، أنت تجهلين مدى الأخطار التى تهددك . لن أحدثك طويلا عن صحة الأوراق التى لا مراء فيها ، ولا عن جدية الأدلة التى تثبت وجود الكونت شابير . وأنا لست الرجل الذى يرضى لنفسه الاضطلاع بقضية خاسرة . وهــذا معلوم لك عنى تماما .. واذا اعترضت على ما ننتويه من الطعن فى بطلان شهادة الوفاة ، فسوف تخسرين هذه القضية الاولى حتما . واذا ما تم الفصل لصالحنا فى هذه النقطة الجوهرية كسبنا كل القضايا الأخرى بعدها ».

ـ ما الذى تريد أن تحدثنى عنه بالضبط ؟ .

ـ لست أريد أن أحدثك عن الكولونيل شابير ولا عن نفسك . كذلك لن أحدثك عن المذكرات التى قد يحررها الدفاع فى القضية ، ويملؤها بالدعابة اللاذعة ، بعد أن توفرت له الوقائع الغريبة التى صاحبتها . كما اننى لن أشير الى نقطة الضعف المتمثلة فى الرسائل التى وصلتك من زوجك الأول ، قبل اقدامك على عقد قرانك من زوجك الثانى ».

ثارت المرأة وقالت فى حنق :

ـ هذا كذب . لم تصلنى أية رسالة من الكونت شابير . واذا كان هناك من يزعم انه الكولونيل ، فلا يمكن الا أن يكون دعيا أفاقا ، أو سجينا عائدا من الليمان ، من أمثال كونيار وغيره . من يدرى انى أرتعد لمجرد التفكير فى هذا الأمر . هل يمكن أن يبعث الكولونيل حيا ، يا سيدى ؟ لقد عزانى بونابرت فى موته بواسطة واحد من حاشيته وما زلت حتى اليوم أتلقى معــاشى عنه بصفتى أرملته ، ثلاثة آلاف فرنك قررتها لى الدولة . كم كنت على صواب حينما طردت عن بابى كل اولئك الذين جاءوا يدعون انهم الكولونيل شابير وسيأتى منهم كثيرون وسأطردهم ايضا ».

رد عليها المحامى فى برود ، وهو يتلذذ باثارة كوامن الغضب فيها على امل أن يحصل منها ، وهى فى ثورتها ، على بعض خفاياها وهى عادة من عادات المحامين الذين الفو الاحتفاظ بهدوئهم بينما خصومهم أو عملاؤهم يتميزون حنقا وانفعالا :

ـ لحسن الحظ يا سيدتى اننا على انفراد الآن ، وليس معنا ثالث . وفى استطاعتنا أن نكذب ما شاء لنا الكذب .

ثم قال فى نفسه ، وهو يدبر فى ذهنــه شركا للمرأة ، لعلها تقع فيه ، فينكشف منها جانب الضعف ، وتكف عن عنادها :

ـ اذن ، فليواجه كل منا الآخر الآن ..

وعاد يقول بصوت مرتفع :

ـ لدينا الدليل يا سيدتى ، على وصول الرسالة الأولى اليك لقد كانت تحوى مبلغا من المـــال .

ـ أما عن المـــال ؟. فهذا كذب .. لم يكن بها اى مال ..

وهنا أسرع درفى يقول وهو يبتسم :

ـ اذن ، وصلتك هـــذه الرســـالة الأولى ، ها انت قد وقعت فى أول شرك ينصبه لك أحد المحامين ، ومع ذلك تعتقدين ان فى استطاعتك الصمود أمام العدالة !..

واحمـــر وجه الكونتيسة ، ثم شـــحب ، وامســـكت رأســـها بيديها . ولم تلبث ان نفضت عنها الخجل ، وعادت تقول فى جراة هى من طبيعة هذا النوع من النساء :

ـ مادمت المحامى عن شابير المزعوم هذا ، فأرجو منك أن ...

قاطعها درفى قائلا :

ـ ســـيدتى ، مازلت حتى هـــذه اللحظة محاميك ومحـــامى الكولونيل . هل تظنين انى أرضى بفقد عميل ثمين مثلك ؟. ولكنك لا تصغين الى ..

فعادت تقول مستظرفة :
ــ تكلم ، ياسيدى .

ــ ان الثروة التى تنعمين بها ، جاءتك عن الكونت شابير ، وقد تنكرت له ورفضت مقابلته . انت فى بحبوحة من العيش ، وهو يتضور جوعا ، وقد تخليت عنه .. سيدتى ، ان بلاغة المحامين تاتى من بلاغة الوقائع نفسها ، وسهولة دفاعهم ترجع الى سهولة القضايا التى بين أيديهم . وفى هذه القضية من الظروف ما قد يضعك فى الموقف الحرج ، ويثير الرأى العام ضدك ..

وضايق الكونتيسة هذا الكلام ، وقد رات أن درفى يضيق عليها الخناق ، ويقلبها فوق الجمر .. فقالت فى اطمئنان مفتعل :

ــ ولكن يا سيدى ، اذا سلمنا جدلا بان هذا السيد شابير الذى تتحدث عنه موجود فعلا ، فان المحاكم لن تبطل زواجى الثانى ، بل تبقى عليه من أجل أولادى . وقد يقتصر الأمر فى هذه الحالة على أن أرد لمسيو شابير هذا ، مبلغ مائتين وخمسة عشر ألفا من الفرنكات ، هذا كل ما فى الأمر .

ــ ما من أحد يعرف يا سيدتى كيف يقدر القضــــاء الجانب العاطفى من المسألة . فاذا كنا من جهة أمام أم وأطفالها ، فنحن من جهة اخرى أمام رجل هدته الاحزان والمصائب ، وفقد قوته وشبابه بسببك أنت وبسبب تمنعك عنه . أين يستطيع وهو على ما هو عليه الآن أن يجد الزوجة التى ترضى به ؟ . ثم هل فى قدرة القضاة أن يتجاهلوا القانون أو يخرجوا على أحكامه ؟ . ان زواجك من الكولونيل شابير هو الاقوى والأولى بالرعاية ، لأن القانون فى صفه . واذا كثر اللغط حول هذا الموضوع ، وتناولته الألسن : وظهرت بالمظهر الذى لا ارضاه لك ، فقد تصادفين خصما لم يكن فى الحسبان .. هنا يا سيدتى ، يكمن الخطر الذى أحاول انقاذك منه ..

اسرعت الكونتيسة فى دهشة تقول :

ــ خصم جديد ؟ . من هو ؟ ..


VENTE

ـ الكونت فيرو يا سيدتى ..

ـ ان الكونت فيرو يكن لى احر العواطف ، كما يحتفظ لأم اولاده باقدس آيات الاحترام ..

يرد عليها درفى مقاطعا :

ـ لا تتحدثى عن مثل هذه السخافات الصبيانية أمام محام اعتاد سبر أغوار القلوب وقراءة ما بين طياتها . ان الكونت فيرو لا يريد فى الوقت الحاضر أن ينهى ما بينه وبينك من رباط الزوجية وهو لا يفكر فى ذلك ، وأنا على يقين من انه هائم بك عابد لك ولكن لو جاء من يهمس له فى اذنه ان زواجه هذا قابل للالغـاء ، وأن زوجته ستقف موقف الاتهام أمام محكمة الرأى العام ..

ـ سيدافع عنى ، يا سيدى .

ـ كلا ، يا سيدتى .

ـ وأى سبب يدعوه الى التخلى عنى ، يا سيدى ؟ ..

ـ سبب بسيط . هو الزواج من بنت وحيدة لاحد اعضاء مجلس الشيوخ ، فتنتقل اليه العضوية بقرار يصدره الملك ..

وشحب وجه الكونتيسة ، فقال درفى فى نفسه :

ـ ها نحن قد وصلنا الى المرام .. وها أنت فى قبضتى الآن .. كسبنا قضية الكولونيل البائس المسكين ..

ثم رفع صوته قائلا :

ـ على أن مسيو فيرو لن يندم كثيرا يا سيدتى على ما سوف يقدم عليه . فهذا رجل تسربل بالمجد ، حائز على رتبة الجنرال ، كونت ، فارس فى جوقة الشرف ، له مكانته وله مقامه ، وقد جاء يطلب منه أن يرد اليه زوجته .. ماذا ..

صاحت الكونتيسة فى يأس :

ـ كفى ، كفى ، يا سيدى . لن اتخذ لى فى هذا الشـــأن

محاميا غيرك .. بماذا تنصحنى ؟ »

فأسرع درفى يقول :
ــ بالصلح !..

صمتت الكونتيسة لحظة ، ثم عادت تسأل :
ــ اما زال يحبنى ؟.

ــ ما أظن الأمر الا كذلك .

عندما سمعت المرأة هذه الكلمات ، رفعت راسـها ، ولمع بريق من الامل فى عينيها . فقد ظنت ان فى امكانها استثارة عاطفـة الود فى قلب زوجها الأول ، ومس جانب الشفقة فيه ، لتفوز منه بما تريد ، عن طريق العوبة من الاعيب النساء ، وحيلة من حيـلهن البارعة الماكرة .

وانحنى درفى يحيى الكونتيسة وهو يقـول وقـد اعتزم الانصراف :

ــ انا فى انتظار اوامرك يا سـيدتى ، لأعلم هل يجب على ان ابدأ فى الاجراءات ، وان اوجه اليك الاعلان الرسـمى بالدعوى ، أم انك تريدين الحضور عنـدى لنشرع فى وضع الأسس العادلة للصلح الذى يصون الكرامة .

ماكادت تنقضى أيام ثمانية على هاتين الزيارتين اللتين قام بهما المحامى درفى ، حتى لعبت الاقدار لعبتها ، فشاءت ان يحدث ما لم يكن يخطر ببال . ففى صباح احد ايام يونيو الرائعة ، تحرك من طرفى باريس المتباعدين كل من الزوجين السابقين ليتقـابلا فى مكتب محاميهما المشترك .

كان الكولونيل شابير كامل الهندام حسن المظهر ، فقد سمحت له القروض السخية التى قدمها له محاميه أن يحصل على ما يليق به من الثياب . جاء فى عربة نظيفة ، وقد كسا رأسه بشـعر مستعار يناسب ملامح وجهه ، وارتدى سترة من الصوف الأزرق

فوق قميص ناصع البياض ، وتمنطق تحت صديريته بالشريط الأحمر العريض شارة فرسان جوقة الشرف، ظهرت على الكولونيل وجاهته العسكرية الأولى بعد أن عادت اليه النعمة وتخلى عنه البؤس والفقر • كان صلب العود ، معتدل القامة ، وقد ارتسم الهناء وما يحمله من آمال على وجهه الصارم المجلل بالأسرار ، فبدا أكثر شبابا يطفح بالبشر والصحة • ما أبعد الشبه بين ما هو عليه الآن وبين شابير ذى المعطف العتيق والحذاء البالى !•• وهل يستوى الصلد العتيق الذى تداولته الأيدى ونال منه الزمن ، وقطعة الجنيه الجديدة اللامعة الخارجة لتوها من دار السك ؟••

ان من يرى الكولونيل ، وهو على ما هو عليه الآن ، ليعرف فيه بغير عناء أثرا من أجمل آثار جيشنا القديم ، ورجلا من الشجعان الذين تنعكس عليهم أمجادنا الوطنية ، والذين يمثلون هذه الأمجاد ، كما تنعكس أشعة الشمس على شظية المرآة ، فتبدو وكأن الشمس كلها قد تجمعت فيها • لكأن هؤلاء الجنود القدامى لوحات تحكى لنا الماضى ، وكتب نطلع فيها الى المجد التليد .

وما أن توقفت العربة عند باب المحامى درفى ، حتى قفز منها الكونت شابير فى خفة الشبان ، وصعد الى المكتب • وما كادت عربته تنصرف حتى أقبلت عربة أخرى أنيقة تزينها الشارات النحاسية اللامعة ، وهبطت منها الكونتيسة فيرو فى زينة بسيطة وثياب منتقاة لابراز شبابها وحسن قوامها • وكانت تغطى رأسها بقبعة جميلة ، بطنت حافتها العريضة بالحرير الوردى ، وجمعت أطرافها حول وجهها ، فأحاطت به ، تخفى حدوده وتزيد من روائه •

وكان مكتب المحامى على ما هو عليه ، كما وصفناه فى بداية هذه القصة ، لم يلحقه شىء من الشباب الذى تحلى به العميلان القادمان اليه • ها هو سيمونان الخبيث يتناول افطاره ، مستندا بكتفه الى النافذة ، كما هى عادته ، ينظر الى زرقة السماء من خلال فجوة الفناء الذى تحيط به العمائر السوداء من جوانبه الأربعة • وصاح الصبى يقول :

ـ أوه . هل منكم من يريد مراهنتى بسهرة فى أحد الملاهى على ان الكولونيل شابير جنرال حقا وحائز على الشريط الأحمر؟

وقال جوديشال :

ـ ما أبرع الأستاذ !.. انه ساحر ماهر حقيقة !..

وسأل ديكروش :

ـ اذن ، لن ندبر له مقلبا هذه المرة ؟..

فرد عليه بوكار :

ـ بل ان زوجته ، كونتيسة فيرو ، هى التى تدبر له المقلب الآن ! ..

وعاد جوديشال يقول ! ..

ـ هل يفرض على الكونتيسة فيرو اذن أن تكون لزوجين معا ؟

وصاح سيمونان :

ـ ها هى قادمة ! ..

فى هذه اللحظة دخل الكولونيل شابير وسأل عن المحامى درفى . فأسرع سيمونان يقول :

ـ الاستاذ موجود يا سيدى .

فنظر اليه شابير وهو يقول :

ـ لست أصم اذن ، أيها الوغد الصغير ؟.

وامسك باذن الفتى بين أصابعه يعصرها ، أمام أعين الكتبة الذين سرهم ذلك ، وأخذوا يضحكون وينظرون الى الكولونيل فى دهشة واجلال ، وهم مشدوهون لشأن هذا الرجل العجيب .

كان الكونت شابير فى حجرة المحامى ، فى الوقت الذى دفعت فيه زوجته باب المكتب .

قال أحد الكتبة هامسا لزميله :

ـ قل لى ، يا بوكار ، سيكون المشهد فريدا فى حجرة الأستاذ.

هذه امرأة فى استطاعتها أن تذهب الى الكونت فيرو فى الأيام الزوجية والى الكونت شابير فى الأيام الفردية ..»

فعلق جوديشال قائلا :

ـ لن يضبط الحساب الا فى السنوات الكبيسة ».

وأسرع بوكار يقول محتدا :

ـ اسكتوا يا سادة ، لئلا يسمعكم أحد . ما رأيت قط مكتبا يستهزىء فيه الكتبة بالعملاء كما هو حادث هنا !..

كان درفى قد أدخل الكولونيل فى غرفة نومه ، عندما دخلت عليه الكونتيسه ، وقال لها :

ـ لا أدرى ، يا سيدتى ، اذا كنت ترغبين فى رؤية الكونت شابير ، لذلك جعلت بينك وبينه فاصلا . فاذا شئت ..»

ـ هذه لفتة أشكرك عليها كثيرا ، يا سيدى ».

ـ لقد أعددتُ مسودة العقد وبه الشروط التى يمكن مناقشتها بينك وبين مسيو شابير . وسأذهب منك اليه ومنه اليك لأنقل لكل منكما وجهة نظر الآخر ».

وبدا على الكونتيسة شىء من الضيق وهى تقول :

ـ ما الذى أعددته يا سيدى ؟».

فأخذ درفى يقرأ من ورقة بين يديه :

« بين الموقعين فيه أدناه : السيد هياسانت شابير ، الحائز على لقب كونت وعلى رتبة الجنرال وعلى درجة فارس فى جوقة الشرف ، والمقيم فى باريس بشارع بيتى بانكييه ، طرف أول ». والسيدة روز شابوتل ، زوجة السيد الكونت شابير المذكور أعلاه ، وابنة ... »

قاطعته الكونتيسة قائلة :

ـ مر على المقدمة ، اترك هذا ، وأسرع بى الى الشروط ».

فقال المحامى :

ـ ان المقدمة ، يا سيدتى ، تشرح باختصار وضع كل منكما فى مواجهة الآخر . بعد ذلك يأتى البند الأول وفيه تعترفين أمام ثلاثة من الشهود ، هم محاميان والعلاف الذى استضاف زوجك ، وقد أسررت اليهم بدقائق الدعوى وتعهدوا بالكتمان المطلق ، تعترفين بأن الرجل المعين فى الأوراق المرفقة بهذا العقد ، والثابتة شخصيته فى الوثيقة المحررة بمعرفة الموثق الكساندر كروتا ، هو نفسه الكونت شابير زوجك الأول. وفى البند الثانى يتعهد الكونت شابير ، ابقاء على سعادتك وهنائك ، بألا يلجأ الى استخدام حق من حقوقه الا فى الحالات المنصوص عليها فى العقد .

وتوقف المحامى لحظة يستطلع الآثار المرتسمة على وجه الكونتيسة ، ثم عاد يقول :

ـ .. هذه الحالات ليست سوى اخلالك بتنفيذ شروط هذا الاتفاق السرى ..

وتوقف المحامى مرة أخرى ، وبعد لحظة قال :

ـ .. وقد قبل المسيو شابير من جانبه أن يتعاون وديا معك للحصول على حكم يلغى شهادة وفاته ، ويقضى بفسخ عقد زواجه منك ..

وبدا الانزعاج على وجه الكونتيسة وهى تقول :

ـ هذا الشرط لا يوافقنى ، ولا يمكن أن أرضاه بحال . فأنا لا أريد قضايا ولا أحكام . وأنت لا تجهل السبب .

ولم يلتفت المحامى الى هذا الاعتراض ، وانما راح يتابع تلاوته فى صوت هادىء كأن لم يحدث شىء ؟.

ـ .. وفى البند الثالث تتعهدين بترتيب ايراد لمدى الحياة باسم الكونت هياسانت شابير ، قدره أربعة وعشرون الفا من الفرنكات ، يتقاضاه الكونت بانتظام من ادارة الدين العام ، ويقيد فى سجلاته ، على أن يعود اليك رأس المال بعد وفاة المستفيد .

قالت الكونتيسة :

ـ ولكن هذا كثير !.. كثير جداً !..
ـ هل فى استطاعتك التصالح على ما هو أدنى من ذلك ؟..
ـ ربما .
ـ ما الذى تريدينه ، على وجه التحقيق ، يا سيدتى ؟..
ـ أريد .. لا أريد قضايا . أريد ..
قاطعها درفى فى عنف وهو يقول :
ـ تريدين أن يظل ميتا لا وجود له .. أليس كذلك ؟..
فاشتد حنق الكونتيسة وقالت :
ـ يا سيدى ، اذا كان لا بد من ايراد هو أربعة وعشرون ألفـا من الفرنكات ، خير لى أن نذهب أمام القضاء ..
وهنا فتح الكولونيل باب الغرفة التى كان بها ، وصاح فى صوت خشن مكتوم :
ـ نعم . سنذهب أمام القضاء ..
وظهر الرجل فى فتحة الباب فجأة أمام زوجته ، وقد وضع يداً فى صديريته ، ومد يده الأخرى نحو أرض الغرفة ، وكأنما ذكرى مغامرته مع الموتى فى جوف الأرض قد أضفت على اشارته هذه قوة هائلة كئيبة .
وذهلت الكونتيسة وقالت فى نفسها :
ـ يا الهى !.. انه هو !..
وعاد الكولونيل يقول :
ـ كثير على ما أطلبه منك !.. أنا الذى أعطيتك ما يقرب من المليون فرنك !.. ها أنت الآن تساومين على بؤسى وحاجتى !.. حسنا .. أريدك أنت الآن .. أريدك أنت وثروتك .. ان أموالك شركة بيننا ، وما زال زواجنا قائما !..
صرخت الكونتيسة فى دهشة مفتعلة :
ـ ولكن يا سيدى ، هذا الرجل ليس هو الكولونيل شابير !..

فصاح العجوز فى صوت اختلط فيه التهكم بالحنق :

ـ هل تريدين الأدلة ؟. اليك الأدلة ، لقد التقطتك من عرض الطريق ، عرفتك فى حدائق اليالى رويال .

علا الشحوب وجه الكونتيسة . واذ رأى الكولونيل هـذا الشحوب يغالب المساحيق التى كست بها وجهها ، توقف فجأة عن الكلام ، وأحس بأسف عميق لتلك الاهانة المؤلمة التى ينزلها بالمرأة التى كانت موضع حبه الشديد فيما مضى . ولكنه حينما نظر اليها تلقى منها نظرة مسمومة بالحقد والكراهية جعلته يعود الى غضبته ويقول :

ـ لقد كنت فى منزل امرأة تدعى ...

فأسرعت الكونتيسة توجه الكلام الى المحامى قائلة :

ـ ارحمنى يا سيدى . اسمح لى بالانصراف ، فما جئت الى هنا لأسمع مثل هذا السباب .

وقامت من مقعدها وانصرفت . فأسرع درفى خلفها يجرى فى أرجاء المكتب ، ولكنها تبخرت وكأنها أوتيت جناحين طارت بهما . عاد المحامى الى حجرته ، فوجد الكولونيل فى أشد حالات الغضب، يروح ويجيء بخطوات واسعة ، وهو يقول :

ـ فى ذلك الزمن كان الواحد منا يختار زوجتـه من حيث يشاء . ولكننى أخطأت الاختيار ، وأسأت الى نفسى بالاعتماد على المظاهر الكاذبة . انها لا تعرف الوفاء ، ولا قلب لها .

ـ هل رأيت ، يا كولونيل ؟. ألم أكن على حق حينما رجوت منك ألا تحضر الى هنـا ؟. أنا الآن واثق من حقيقة شخصيتك . فحينما ظهرت من الباب بدرت من الكونتيسة حركة فضحت دخيلة نفسها ، ونمت عما فى ضميرها . ولـكنك خسرت الآن قضيتك ، وأصبحت زوجتك تعرف ان من المستحيل التعرف عليك .

ـ سأقتلها ..

ـ جنون . سيقبض عليك ، وتقطع رقبتك بالمقصلة مثل أسافل القتلة . وربما أخطأت ضربتك ولم تصبها ، وهذا خطأ لا يغتفر ، اذ يجب على من يريد قتل زوجتـه ألا يخطىء التصويب اليها في مقتل . دعني الآن أصلح ما أفسدته بنزقك وغبائك ، أيها الطفل الكبير . اذهب وتنبه لنفسك ، فهي قادرة على أن تدبر لك مكيدة ، وان تنصب لك فخا تقع فيه ، فتدخلك الى مستشفى المجـاذيب . سأسارع باعلان الأوراق اليها لأقيك شر المفاجأة .

وأطاع الكولونيل المسكين محاميه الشـاب وخرج وهو يردد اعتذاراته في كلمات متعلثمة . ونزل درجات السلم متباطئا ، وهو تائه في أفكاره السوداء ، تؤلمه الطعنة التي تلقاها ، ويحس بمرارتها وبنفوذها الى أبعد شغاف قلبه . وعنـــــدما وصل الى الدرجات الأخيرة سمع حفيف ثوب حريري ، وظهرت أمامه زوجته في عتمة المكان .

قالت له ، وهي تأخذ بذراعه في حركة شبيهة بتلك الحركات التي ألفها منها من قبل :

ـ تعال ، يا سيدي .

وكان فيما أقدمت عليه الكونتيسة وفي نبرة صـــوتها الذي عادت اليه حلاوته ، ما يكفي لتهدئة ثورة الكولونيل الذي انقاد لها وسار الى جوارها حتى عربتها . وأسرع خادمها ينشر أمامها سلم العربة الفاخرة . فقالت لزوجها :

ـ هلا ركبت معي ؟ .

وجد الكولونيل نفسه جالسا الى جوار زوجته في العربة ، وكأنه مقود بسحر لا يدري له كنها .

وسأل الحوذي :

ـ الى أين تريدين الذهاب ، يا سيدتي ؟ .

فقالت :

ـ الى جروسلى ..

وانطلقت الخيل بالعربة تخترق باريس بطولها ..

وقالت الكونتيسة للكولونيل فى صوت ينبىء عن حالة من حالات التأثر العميق التى لا يصادفها الانسان الا قليلا فى الحياة، والتى تهز كياننا وتزلزل كل ما فينا :

ـ سيدى !..

وفى مثل هذه اللحظـــات يرتج كل شىء فينا ، قلوبنـــا ، وأعصابنا ، ومشاعرنا ، ووجوهنا ، ونفوسنا ، وأجسامنا ، وكل خلية من خلايانا . وتبدو الحياة وكأنها قد أفلتت منا ، فرت من جوانحنا ، وفارت ، وانتقلت الى الآخرين ، كأنها عدوى ، وانتشرت بالنظرة العجلى ، وبنبرة الصوت ، وبالاشـــارة المبهمة ، فتنقل ارادتنا الى من نريد .. وذاب الجندى العجوز عند سماعه لهـــذه الكلمة « يا سيدى ..! » هذه الكلمة الوحيدة كان لها فى نفسه فعل رهيب .. فقد أحس فيها بخليط من مشاعر العتب والرجاء والعفو والأمل واليأس والسؤال والجواب .. جمعت هذه الكلمة كل شىء .. وليس فى استطاعة امرأة أن تجمع فى كلمة واحدة كل هذا القدر من البلاغة والتأثير ، وكل هـــذه الطاقة من المشـــاعر والأحاسيس ، ما لم تكن ممثلة بارعة فى فنها .. أما التعبـير عن الحقيقة فهو أبعد من هذا كمالا وأقل صدقا ، لأنه لا يبرز كل شىء الى الخارج ، ويكشف عن كل ما كمن فى الداخل .. وقـــد أحس الكولونيل بالندم العميق على ما ساوره من شكوك ، وعلى ما بدر منه من طلب ، وعلى ما انتابه من غضب ، فأطرق بعينيـــه حتى لا يبدو عليه الاضطراب ..

وعادت الكونتيسة بعد فترة تقول :

ـ سيدى .. لقد عرفتك فى الحال ..

فقال لها الـكولونيل :

ـ روزين .. هذه الكلمة هى البلسم الوحيد لجراح نفسى ،

والدواء الوحيد القادر على مسح آلامي وشجوني ..

وانحدرت من عينيه دمعتان ساخنتان على يدي زوجته ، وقد ضمهما بقوة بين يديه ليعبر لها على الحنو الأبوي الدافق ..

وعادت الكونتيسة تقول :

ـ سيدي .. كيف لم تفطن الى ما أحسست به من جرح شديد وأنا أبدو أمام هذا الغريب عنا في الوضع الفاسد الذي أنا فيه الآن .. واذا كان لي أن أخجل من أمري فليكن خجلي على الأقل فيما بيننا كأسرة .. ألم يكن يجدر بنا أن يظل هذا السر دفينا في قلبي وقلبك ؟ وأملي أن تغفر لي ما بدا مني من انصراف ظاهر عن المآسي التي حلت برجل كان كل ما حولي يحول بيني وبين الاعتقاد في وجوده حيا .. لقد تلقيت رسالاتك .

وتوقفت برهة عندما ارتسمت علامات الاعتراض على وجه زوجها ، ثم عادت تقول في تصميم :

ـ ... نعم ، تلقيت رسالاتك ، ولكنها وصلتني بعد انقضاء ثلاثة عشر شهرا على موقعة ايلو .. وكانت كلها مفضوضة ، ممزقة ، قذرة ، ذات خط يتعذر تمييزه . وقد ظننت ، بعد حصولي على توقيع من نابليون على عقد زواجي الجديد ، أن نصابا ماهرا يحاول التغرير بي وابتزاز أموالي .. ولرغبتي في عدم اقلاق راحة الكونت فيرو ، والمحافظة على روابط الأسرة التي أنشأتها اضطررت الى اتخاذ احتياطاتي حتى لا أقع في أحابيل من يزعمون انهم الكونت شابير كذبا .. ألم أكن على صواب في ذلك ؟ قل لي بربك ..!

ـ نعم .. كنت على صواب ، وعلى حق .. وأنا وحدي الذي كنت غبيا ومغفلا ، لأني لم أقدر خيرا مما قدرت نتائج مثل هذا الوضع الشاذ .

ثم ألقى الكولونيل نظرة من نافذة العربة ، فرأى أسوان الاشابيل في أطراف باريس فسأل الكونتيسة :

ـ الى أين نحن ذاهبان ؟..

ـ الى مزرعتى ، بالقرب من جروسلى ، فى وادى مونمورانسى، هناك سنفكر يا سيدى معا فى الحل الذى يتعين علينا الأخذ به ، لست أجهل ما هو مفروض على من واجبات .. واذا كنت زوجتك بحكم القانون ، فلست أحل لك بحكم الواقع . هل ترضى أن نصبح أنت وأنا أضحوكة باريس ، وقصة تلوكها الألسن فيها .. لنخفى هذا الأمر عن الناس ، اذ فيه جانب من الاذلال والتحقير لى ، ولنحفظ لنا كرامتنا ، ولنبقى على سمعتنا ..

وسكتت الكونتيسة برهة ألقت بعدها على زوجها نظرة ملأتها حزنا ورقة ثم قالت فى تودد :

ـ مازلت تحبنى بعد ، أعرف ذلك .. ولكن أنا ؟ ألم يكن من حقى أن أرتبط بروابط أخرى ؟ انى وأنا فى هذا الموقف الشائك اشعر فى قرارة نفسى بصوت يقول لى انى آمل فى نبيل خلقك الذى خبرته كثيرا من قبل .. هل مما يسيئنى أن أجعل منك الحكم الوحيد الذى يقرر مصيرى ويقضى فى أمرى ؟ كن أنت الخصم وأنت الحكم معا .. انى أستسلم الى كريم خصالك ونقاء سريرتك .. وسيغفر لى قلبك الطيب نتائج الأخطاء البريئة التى ارتكبتها بغير ذنب . اعترف لك لى اذن انى أحب مسيو فيرو . وقد ظننت ان من حقى ، بل من واجبى ، أن أحبه .. ولست أخجل من اعترافى بهذه الحقيقة أمامك .. واذا كان فيها ما يغضبك ويثير شعورك ، فليس فيها ما يمس كرامتك أو يخدش شرفك .. وهل فى استطاعتى أن أخفى عنك الحقائق ؟ عندما شاءت الأقدار أن تجعل منى أرملة ، لم أكن أماً بعد ..

أشار الكولونيل بيده الى زوجته لتكف عن الكلام ، وظلا لا ينبسان ببنت شفة طوال نصف ميل .. وكان شابير يرى فى خياله الطفلين الصغيرين أمام عينيه ..

ثم قطع الكولونيل الصمت وقال :

ـ روزين ٠٠ !

ـ سيدى ؟٠٠

ـ هل يخطىء الموتى اذا عادوا الى الحياة ؟٠٠

ـ كلا ٠ كلا ٠٠ يا سيدى ٠٠ لا تظننى أتنكر لك أو أجفوك ٠٠ كل ما هنالك انك تجد الآن عاشقة محبة وأما حنوناً فى المكان الذى تركت فيه زوجة من قبل ٠٠ واذا كان من المستحيل على اليوم أن أحبك كزوجة ، فأنا عارفة بجميلك فى كل ما أنا مدينة لك به ، وقادرة على أن أقدم لك ما تقدمه الابنة من ود واعزاز لأبيها ٠٠

عندئذ قال الرجل العجوز فى صوت عذب :

ـ روزين ٠٠ لم يعد في قلبى سبب للحقد عليك ٠٠

وظهر التأثر على وجهه ، ثم ابتسم تلك الابتسامة التى تعكس دائما ما فى النفس من صفاء وما فى القلب من حنان ، وعاد يقول :

ـ سوف ننسى كل شىء ونمحو كل ما حدث ٠ فلست من التنطع بحيث أطلب مظاهر الحب الكاذب من امرأة لم تعد تحبنى ٠٠

وأرسلت الــكونتيسة نحوه نظرة شحنتها بعلامات العرفان بالجميل ، جعلت شابير المسكين يود لو انشقت الأرض من تحته ، وعاد الى القبر الذى دفن فيه هناك فى ايلو ٠ فمن الرجال من يرضى بمثل هــذه التضحية ٠٠ ولا يجـد من عزاء فى الاقبال عليها الا الاحساس بأنه قد حقق السعادة والهناء لمن يحب ٠

وعادت الكونتيسة تقول :

ـ سوف نتناول الحديث فى ذلك كله ، يا صديقى ، فيما بعد عندما يهدأ قلبانا وتصفو نفسانا ٠٠

وتطرق الحديث بينهما الى وجهة أخرى ، بعد أن تعذر الاستمرار فيه على هذا النسق مدة طويلة ٠٠ ولم يعد الزوجان الى ذكر ما هما فيه من وضع عجيب الا لماما وتلميحا ٠ وفى غير ذلك كانت الرحلة

رائعة ، تذاكرا فى خلالها ماصادفهما من أحداث فى حياتهما الزوجية السابقة ، وما علق بذهنهما من وقائع الحكم الامبراطورى القديم .. وعرفت الكونتيسة كيف تضفى على تلك الذكريات البعيدة طابع الحنان والاعزاز ، وأشاعت فى الحديث لمسة من الحزن والأسى كان لابد منها لتبقى للموقف جديته .. لقد أثارت كوامن الحب فى قلب زوجها من غير أن توقد فيه الرغبة ، وكشفت له عما تجمع فى نفسها من قيم معنوية نبيلة ، وراحت تحاول اغراءه على الاكتفاء من الهناء بسعادة القرب التى يقنع بها الأب البار المحب من ابنته المدللة .. لقد عرف الكولونيل من قبل فى زوجته احدى كونتيسات عهد الامبراطورية ، وها هو يرى فيها الآن احدى كونتيسات عهد الملكية العائدة ..

وأخيرا وصل الزوجان ، عن طريق جانبى ، الى مرج كبير وسط الوادى الضيق الذى يفصل مابين مرتفعات مارجانسى وقرية جروسلى الجميلة .. وكانت الكونتيسة تملك فى هذه البقعة بيتا رائعا وجد فيه الكولونيل ، عند وصوله ، جميع الاستعدادات اللازمة لاقامته ولاقامة زوجته ..

لا شك ان للبؤس قدرة سحرية على ابراز كوامن التكوين الانسانى ، وعلى جلو طبيعة هذا التكوين ، واظهار معدنه ، فهو فى بعض الرجال يزيد من خبثهم وقسوتهم ، وفى البعض الآخر يضاعف من شفقتهم وحلمهم .. وهؤلاء هم ذوو القلوب الطاهرة .. ولقد جعل الشقاء من الكولونيل شابير انسانا أكثر كرما وأوفر عطفا مما كان عليه من قبل ، وأصبح بذلك أشد استعدادا لتفهم خفايا الآلام والأحزان التى تصيب قلوب النساء ، والتى يجهلها معظم الرجال .. غير أن بقية من التوجس والشك المريب ظلت تساوره فى شأن زوجته .. فابتدرها بهذا السؤال :

ـ هل كنت واثقة كل الثقة من قدرتك على احضارى الى هذا المكان ؟..

فردت عليه قائلة :

ـ نعم .. لأنى وجدت فيك الكولونيل شابير الذى عرفته .. ولم أجد فيك الرجل المشاكس الذى يريد الوقوف أمام القضاء ..

وكان فى صوت الكونتيسة وهى تقول هذا الكلام من الصدق والثقة ما بدد فى قلب الكولونيل آثار الشكوك التى نبتت فيه .. فندم على ما كان منه نحوها ..

ظلت الكونتيسة طوال أيام ثلاثة تبذل لزوجها الأول من العطف والرعاية ألوانا وفنونا ، وبدت وكأنها تحاول ، بعنايتها المستمرة ورقتها الفائقة ، أن تمحو ذكرى الآلام التى نزلت به ، وأن تستغفره عن البؤس الذى قاساه بسببها ، وكانت هى ، باعترافها ، مصدره .. وحرصت كل الحرص على أن تبـــدى له ، فى شىء من البرىء .. وحرصت كل الحرص على أن تبـــدى له ، فى شىء من الدلال الحزين ، جوانب من الحسن والرقة عرفت فيـــه من قبل الضعف أمامها والانقياد لها .. وفينا ، نحن الرجال ، شـــيطان يجعلنا نميل أكثر ما نميل الى بعض أساليب الحديث ، والى أنواع جميلة من نوازع القلب والفكر ، فنقف أمامها منزوعى المقاومة عزلا من السلاح ..

لقد أرادت الكونتيسة أن تثير فى الرجل اهتماما بحالتها ، وأن تحرك عوامل الرحمة فيه ، لتستولى بعد ذلك على عقله ، وتسيطر سيطرة كاملة عليه . وصممت على تحقيق مأربها هذا مهما كلفها الأمر ، وان كانت لا تدرى بعد ما الذى تفعله بهذا الزوج بعد اخضاعه .. ان رغبتها الكبرى هى القضاء عليـــه اجتماعيا ، حتى لا تقوم له قائمة أبدا ..

وفى مساء اليوم الثالث أحست أنها ، على الرغم من كل مابذلت من جهود ، ما زالت فى شك من نتيجة حيلها وتدبيراتها . فادعت الحاجة الى بعض الراحة ، وصعدت الى غرفتها حيث جلست أمام المنضدة وخلعت قناع الاطمئنان والهدوء الذى طالمـــا أخفت وراءه وجهها أمـــام الكولونيل شابير ، فكانت كالممثلة التى تعود منهكـــة الى مخدعها ، بعد دور شاق طويل على خشبة المسرح ، فتلقى بنفسها خائرة فى أحد المقاعد ، وتترك فى أعين المشاهدين وذهنهم صورة لم تعد تشبهها فى شىء . وراحت تتم رسالة كانت قد بدأتها من

قبل موجهة الى دلبيك ، وهى تكلفه فيها بأن يذهب نيابة عنها الى مكتب المحامى درفى ، وأن يطلب الاطـلاع على الوثائق الخاصة بالكولونيل شابير وأن ينسخ هذه الوثائق ثم يأتى لمقابلتها فورا فى جروسلى ..

وما كادت الكونتيسة تتم رسالتها حتى سمعت فى الدهليز وقع أقدام الكولونيل ،الذى شغلته غيبتها عنه فجاء يسعى اليها .

وما ان رأته حتى صاحت قائلة :

ـ وا أسفاه ! .. بودى لو كنت الآن جثة هامدة . ان وضعى أصبح لا يطاق ...

فأسرع الكولونيل يسألها فى لهفة وسذاجة :

ـ ما خطبك ؟ ماذا بك ؟ ...

قالت فى خبث حواء :

ـ لا شىء ، لا شىء ...

وقـــامت من مقعدها ، تاركة الكولونيل فى الحجرة ، ونزلت لتحدث خادمتها بعيدا عن سمعه . أوصت الخادمة بأن تذهب لتوها الى باريس وأن تسلم بنفسها الى دلبيك الرسالة التى كتبتها ، ثم تعيدها اليها بعد أن يقرأها وكيل زوجها . بعد ذلك اختارت من بين مقاعد الحديقة مقعدا ظاهرا جلست فيه بحيث يسهل على الكولونيل أن يراها وأن يأتى اليها متى شاء وكان الرجل فى تلك الأثناء يبحث عن زوجته ، واذ رآها أسرع اليها ، وجلس الى جوارها ، وراح يسألها فى قلق :

ـ روزين ، ماذا حدث لك ؟.

فلم تجبه ولاذت بالصمت .

وكان الوقت مساء رائعا . أمسية من تلك الأمسيات الهادئة التى تنشر فى شهر يونيو عبيقا خافتا وسحرا نافذا عندما تحـل

ساعات الغروب . كان النسيم دائما والصمت مخيمـــا ، بحيث تسمع على البعد ، فى بعض أرجاء المرج ، اصوات اطفال تجـرى وتلهو ، فتزيد نغمات حلوة على المنظر الرائع الذى رسمته الطبيعة

وعاد الكولونيل يسأل زوجته :

ـ الا تردين على ، يا روزين ؟

قالت الكونتيسة :

ـ ان زوجى ....

وتوقفت عن الكلام ، ثم بدرت من يدها اشارة ، وقالت وقـد علت الحمرة وجهها من الخجل والاستحياء :

ـ كيف أعبر وانا اتحدث عن الكونت فيرو ؟.

فرد عليها الكولونيل فى صوت ملؤه العطف والحنان :

ـ بل سمه زوجك ، يا فتاتى المسكينة !.. اليس هـــو والد أطفالك ؟.

قالت :

ـ اذن ، ماذا اقول له اذا سألنى عما جئت افعله هنا ؟ كيف يكون موقفى اذا علم انى عشت تحت سقف واحد مع رجل غريب ؟.

ثم اتخذت الكونتيسة مظهرا جادا وهى تقول :

ـ اسمع يا سيدى ، قرر بنفسك مصيرى ،واختر لى ماتشاء، انى اسلمت أمرى لك ، وسأنفذ ما تقضى به ...

امسك الكولونيل بيدى زوجته وقال :

ـ يا عزيزتى ، لقـــد عزمت على أن أضحى بنفسى تماما فى سبيل سعادتك ..

فصرخت وقد افلتت منها حركة عصبية :

ـ هذا مستحيل . فكر فى انه يجب عليك عندئذ ان تنزل عن شخصيتك الى الابد وبطريقة رسمية ...

قال الكولونيل :

ـ كيف ؟ . ألا تكفيك كلمة الشرف منى ؟ .

لقد سقطت كلمة « رسمية » هذه على قلب الرجل العجوز سقوطا سيئا ، فاحيت فيه شكوكا لم يكن يريد لها أن تثار من جديد . والقى على زوجته نظرة أشاعت الحمرة فى وجهها ، فخفضت عينيها . وخشى هو ان يحدث ما يحمله على ازدرائها ، وخشيت هى ان تكون قد خدشت حساسيته المرهفة وضميره الحى ، وهو الرجل الذى تعرف الكثير عن خلقه الطيب وخصاله الكريمة . وغامت السحب قليلا على وجهيهما ولكن سرعان ما عاد البشر اليهما ، وانفرجت أساريرهما ، حينما جاء اليهما من البعد أصوات الاطفال .

ونادت الكونتيسة تقول :

ـ يا جول . دع اختك ، لا تعاكسها .

فسألها الكولونيل :

ـ كيف ؟ هل اولادك هنا ؟ .

ـ نعم . ولكننى نبهت عليهم الا يقلقوا راحتك ، او يزعجوك .

وقدر الرجل العجوز هذه اللفتة الرقيقة من جانب زوجته ، وتناول يدها ورفعها الى شفتيه يلثمها فى حنان . وقال لها :

ـ ليأتوا الى هنا .

واقبلت الفتاة الصغيرة تجرى لتشكو اخاها .

ـ ماما ! ...

ـ ماما ! ...

ـ هو الذى ...

ـ هى التى ..

وامتدت الايدى الصغيرة نحو الام ، واختلطت اصوات الطفلين فى ضجيج ، فكان منظرا مفاجئا جميلا .

صاحت الكونتيسة وهى ترسل الدموع من عينيها :

ـ مساكين هؤلاء الاطفال !.. يجب على ان اترك ابنى وابنتى هذين . لمن سوف يعهد بهما الحكم يا ترى ؟ هل من سبيل الى شطر قلب المرأة وتقسيمه الى جزئين ؟ كلا . انا اريدهما لى ، لى وحدى ..

قال الصغير جول وهو يوجه الى الكولونيل نظرة غاضبة ؟.

ـ هل أنت الذى ابكيت أمى ؟.

فصرخت فيه الأم فى حزم وأمر :

ـ اسكت يا جول .

ظل الطفلان واقفين لا ينبسان بكلمة ، وهما ينظران الى امهما تارة والى الرجل الغريب تارة أخرى فى دهشة يعجز اللسان عن وصفها .

وعادت الكونتيسة تقول :

ـ نعم . اذا ارادوا التفريق بينى وبين الكونت ، فليتركوا لى الاطفال . وسأرضى بعدها بكل شىء ، واخضع لكل أمر ..

وقال الكولونيل ، وكانه يتم كلاما بداه فى سريرته :

ـ نعم . يجب على أن اعود الى الاختفاء .. فى جوف الأرض ثانية . لقد حدثت نفسى بهذا من قبل ، وعزمت عليه .

ردت عليه الكونتيسة قائلة :

ـ وهل فى استطاعتى ان أقبل تضحية كهذه ؟ هنـــاك رجال

بذلوا حياتهم من اجل عشيقاتهم،ولكنهم لم يموتوا الا مرة واحدة. اما انت ، فسوف تجود بحياتك كل يوم مرة . لا . لا . هـــذا مستحيل . ولو تعلق الامر بوجودك ، لهانت التضحية . ولكن ان تقر وتوقع بامضائك انك لست الكولونيل شابير ، ان تعترف بانك كاذب مدع ، ان تعرض شرفك للمهانة ، لن تستمر في الـــكذب والادعاء كل ساعة من ساعات النهار ، ان الاخلاص والتفاني لدى الانسان لا يصلان الى هذا الحد من نكران الذات. كلا . والله لولا طفلي البريئين لفررت معك ، ولتبعتك الى أقصى حدود العالم ..

صمت شابير برهة عاد بعدها يقول :

ـ ولكن ، الا يمكنني البقـاء هنا ، والعيش في هـذا البيت المتطرف الصغير كواحد من أقاربك ؟ ان حاجاتي محدودة ،وطلباتي قليلة ، وكل ما يلزمني هو قليل من الطباق وجريدة الدستور كل صباح.

انفجرت الكونتيسة تبكي ، ونشبت بينها وبين الـــكولونيل شابير مبارزة ســلاحها التسامح والـكرم ، خرج منها الجندي منتصرا . لقد شاهد الكولونيل في ذلك المساء تلك الأم وهي تنتحب بين طفليها ، وخلب لبه ما في هذا المشهد المؤثر من انفعـــالات ، وسط هذه الطبيعة السخية بالعطاء والخير ، وفي عتمـة الليل والصمت المخيم . اسرة يهددها التفكك والشقاء وفي كلمة منـه سعادتها ولم شملها . فعزم على ان يقبل لنفسه المـوت وقرر ان يرضى بالزوال . لم تعد الاجراءات الرسمية تخيفه ، ولم تعـد كلمة الاختفاء تثير حفيظته . فسأل عن الطريقة التي يتبعها ليحقق لهذه الأسرة السعادة والهناء .

فردت عليه الكونتيسة :

ـ افعل ما يحلو لك . أؤكد لك اني لن اتدخل في شيء له صلة بهذا الموضوع . ليس من حقي ولا من واجبي هذا.

حضر دلبيك بعد ايام ، وعملا بتعليمات الكونتيسة وتوجيهاتها ، تمكن بغير كثير عناء من اكتساب ثقة الكولونيل العجوز ، وترتيب الأمر على ما يرام . وفى اليوم التالى توجه الوكيل ومعه الكولونيل شابير الى بلدة سان لوتافرنى حيث كان الاقرار معدا للتوقيع عليه عند الموثق . وما أن سمع الكولونيل عبارات الاقرار تتلى عليه ، فى صراحتها المثيرة وكلماتها الفجة ، حتى انطلق فجأة الى خارج المكتب وهو يصيح :

ـ يا للشياطين ! . هل انا مغفل الى هذا الحد لأوقع على مثل هذا الكلام ؟ . اننى أكون مزورا كاذبا اذا سلمت بذلك ! .

اسرع دلبيك يقول له :

ـ لست أنصح اليك ، يا سيدى ، بأن توقع على هذه الورقة بغير ترو أو باستعجال .. ولو كنت أنا مكانك الآن لعرفت كيف أحصل من هذا الامضاء على دخل ثابت لا يقل عن ثلاثين الف جنيه . ان الكونتيسة على استعداد لدفع هذا المبلغ .

القى الكولونيل نظرة كالصاعقة على الوغد الذى حدثه هذا الحديث ، نظرة الرجل الشريف الذى مست كرامته فثار لها ، وانطلق فى سبيله لا يلوى على شىء ، تتنازعه آلاف العواطف المتعارضة . وعاوده الشك القديم وامتلأ قلبه من جديد توجسا ، ثم تتابعت فى نفسه عوامل الغضب وامارات الهدوء . وانتابته الهواجس .. وبعد أن سار مسافة طويلة وصل اخيرا الى مرج جروسلى ، فدخل اليه من فجوة فى السور ، وبخطوات وئيدة ذهب ليستريح ويفكر فى امره داخل حجرة صغيرة فى اسفل الكشك الخشبى الذى يطل على طريق سان لو . وكانت ممرات المرج مكسوة بذلك الرمل الأصفر الناعم الذى يحل احيانا محل الزلط عند عدم توفره . وكانت الكونتيسة فى الكشك الذى يعلو الغرفة ، ولكنها لم تسمع وقع اقدام الكولونيل على الرمل . وهل فى استطاعتها ان تصغى الى مايحدث حولها ، وهى مستغرقة فى

التفكير فيما يشغل بالها من نجاح المهمة التى كلفت بها وكيل اعمال زوجها . اما الكولونيل العجوز فهو الآخر لم يشعر بوجود زوجته فى الكشك الصغير فوق رأسه .

وبعد برهة ظهر دلبيك على الطريق ، ورأته الكونتيسة وهو يسير وحده الى جوار السور الأخضر . فراحت تناديه من حيث تجلس فى الكشك :

ـ ما وراءك ، يا مسيو دلبيك ، هل وقع على الاقرار ؟ .

ـ كلا يا سيدتى .. بل اننى لا ادرى اين ذهب الرجل ، ولا ما الذى حدث له . لقد حرن الجواد العجوز وأفلت منى زمامه .

فردت عليه الكونتيسة قائلة :

ـ يلزمنا اذن أن ننتهى بوضعه فى مستشفى المجانين ، مادام بين يدينا وفى قبضتنا الآن .

فجأة استعاد الكولونيل قوة الشباب ونشاط الصبا ، فقفز سور النباتات الذى يسير الوكيل الى جواره ، وفى لمحة عين كان واقفا امامه . رفع الكولونيل يده وهوى بها مرتين على صدغ دلبيك فطبع بذلك أعنف صفعتين قدر لأحد الوكلاء ان يتلقاهما على وجهه .. وقال له :

ـ بل قل يا وغد ان عجائز الجياد تعرف كيف ترفس وتكيل الضربات لمن يستحقها .

بعد أن هدأت ثورة غضبه ، عجز الكولونيل عن القفز فوق الهوة التى انخفضت أمامه . لقد تجردت الحقيقة أمام عينيه وظهرت فى جلاء . لقد كشفت له العبارة التى سقطت من شفتى الكونتيسة ، كما كشف له رد دلبيك عليها ، ابعاد المؤامرة التى كانت تحاك من حوله ، والتى أوشك أن يسقط فيها . وما الرعاية التى احيط بها ، والحنان الذى بذل له ، الا الطعم الذى نصب له

لاجتذابه داخل الشرك . هذه الكلمات التى وصلت الى اذنه كانت قطرات من السم الزعاف أعادت الى الجندى العجوز الاحساس المرير بآلام الجسم والروح معا .

وعاد يسير فى اتجاه الكشك عن طريق باب المرج فى خطوات بطيئة كالجندى الجريح المتهالك . ها هو قد تحقق من أن الهدوء والسلام امران لن يذوق لهما طعما أبدا ، وان هذه اللحظة قد فرضت عليه بدء المعركة الرهيبة بينه وبين تلك المرأة ، المعركة التى طالما حدثه عنها المحامى درفى . ستصبح حياته سلسلة لا تنتهى من القضايا والمنازعات ، سيعيش على الحقد والحذر ، سيتجرع فى كل صباح كأسا مترعة بالمرارة والكراهية . ثم عاودته فكرة رهيبة ، اين له بالمال اللازم لدفع نفقات هذه الدعاوى ، أو الأولى منها على الأقل ؟ . واسودت الدنيا فى عينيه ، وانتابه من الحياة يأس يكفى لحمله على الالقاء بنفسه فى الماء ، لو كان بالقرب منه ماء ، او لاطلاق الرصاص على رأسه ، لو كان لديه الرصاص والسلاح . ولم يلبث أن عاودته الحيرة وتغلب عليه الشك فى تفكيره ، وتذكر الكلمات التى قالها له المحامى درفى فى بيت العلاف ، والتى غيرت من روحه وبدلت من تفكيره وحملته على الاستسلام .

وصل الكولونيل الى الكشك وصعد الى الغرفة العلوية التى تطل نوافذها الزجاجية من كل جانب على المناظر الرائعة المنتشرة فى أنحاء الوادى الصغير . كانت الكونتيسة جالسة على أحد المقاعد ، تنظر الى الطبيعة من حولها ، وقد تمالكت أعصابها ، واحتفظت بهدوئها ، واتخذ وجهها تلك السحنة الغامضة التى تعرف الطريق اليها النساء المصممات على عظائم الأمور .

مسحت الكونتيسة عينيها ، وكأنها كانت تسكب الدموع ، وراحت تقلب فى حركة غير واعية الشريط الوردى الطويل المتدلى من حزام ثوبها .. ولم تستطع ، على الرغم من تظاهرها بالثبات والهدوء ، من ان تحول بينها وبين الرجفة الهائلة التى اعترت جسمها ، وهى ترى أمامها الرجل العجوز ، الذى احسن اليها وعطف

عليها ، واقفا وقد ضم ذراعيه على صدره ، وشحب وجهه ، وبدا الغضب على جبينه ..

قال لها الكولونيل :

ـ سيدتي ...

وتوقف عن الكلام ، وأخذ يسدد اليها لبرهة نظرة قاسية أحست تحت وطأتها بحمرة الخجل تعلو وجهها . ثم عاد يقول :

ـ سيدتي .. لست العنك ، وانما أنا أحتقرك . هأنذا الآن أحمد للقدر أن فرق بيننا وأبعدني عنك . لم تعد لدي عاطفة نحوك ، حتى ولا الرغبة في الانتقام منك . مات حبك في قلبي .. كلا لم أعد أحبك . ولا أريد منك شيئا . عيشي هادئة مطمئنة ، وثقي في كلمة الشرف مني ، فهي خير الف مرة من الأوراق الصفراء التي يحررها جميع موثقي باريس بأسرها . لن أطالب أبدا بذلك الاسم الذي قدر لي في يوم من الأيام أن أحيطه بهالة المجد والخلود . لست بعد اليوم الا صعلوكا بائسا يدعى هياسانت لا يطلب لنفسه غير مكان له تحت الشمس .. وداعا ..

ارتمت الكونتيسة عند قدمي الكولونيل تحاول منعه من الرحيل ، والامساك بيديه ، ولكنه دفعها بعيدا عنه باشمئزاز وهو يقول :

ـ ابعدي عني .. لا تمسيني ! .

أشارت الكونتيسة بيديها اشارة يعجز القلم عن ترجمتها ، وهي تنصت الى وقع خطوات زوجها وهو يهبط سلالم الكشك .. ثم راحت تفكر ، بذلك الوعي العميق الذي تخلقه الجريمة في ضمير المجرم ، وتودعه الأنانية الجشعة في قلب الانسان الشرير ، وقالت لنفسها ان في استطاعتها الآن أن تحيا هانئة سعيدة ، اعتمادا على الوعد الذي صدر عن هذا الجندي الشهم ، وعلى الازدراء الذي ظهر منه نحوها .

واختفى شابير من الوجود . فقد افلس الملاف وتحول الى حوذى يقود العربات . ولعل الكولونيل شاركه هذه المهنة لفترة ما فى اول الأمر . بل لعله راح ، كالحجر الذى يلقى به فى الهاوية ، يتدحرج من حفرة الى حفرة حتى استقر به المقام وسط الأوحال والخرق التى تعج بها شوارع باريس .

انقضت على هذه الأحداث ستة اشهر كاملة ، لم يسمع المحامى درفى خلالها لا عن الكولونيل شابير ولا عن الكونتيسة فيرو . وظن المحامى ان صلحا ما قد تم بين الطرفين ، وان الكونتيسة ، بدافع الرغبة فى الانتقام منه ، قد طلبت الى محام آخر غيره تحرير هذا الصلح . وفى صبيحة احد الأيام اخذ درفى يجمع المبالغ التى قدمها قروضا متتابعة لهذا الكولونيل ، واضاف الى المجموع قيمة النفقات التى انفقها ، وكتب الى الكونتيسة فيرو يطالبها بأن تتوسط له لدى الكونت شابير فى سداد المبلغ المستحق له . واشار فى رسالته الى أن الكونتيسة تعرف بلا شك العنوان الذى يقيم فيه زوجها الأول .

وفى اليوم التالى تلقى المحامى من دلبيك ، وكيل اعمال الكونت فيرو ، وقد عين حديثا رئيسا لاحدى المحاكم الابتدائية فى مدينة هامة من مدن الريف ، الرسالة المحزنة الآتية :

« سيدى .. كلفتنى الكونتيسة فيرو بأن ابلغكم أن عميلكم الذى تشيرون اليه قد خدعكم وغرر بكم واستغل ثقتكم به ، وان الرجل الذى زعم من قبل انه الكولونيل شابير قد اعترف واقر بأن دعواه فاسدة ، وانه أسند لنفسه صفة ليست له . وتفضل يا سيدى بقبول تحياتى » ..

« دلبيك »

صاح درفى عندما قرأ هذه الرسالة :

ـ والله ، ما اكثر ما يصادف المرء من افاقين ادعياء ، ولكن

قليلا منهم له مثل هذا الذكاء . انهم قادرون على التقرير بالملائكة انفسهم . هاندا قد تدرعت بالانسانية ، وتحليت بالكرم والجود ؟ وكنت محبا للخير ، فكيف كان جزائى ؟ . لقد خسرت فى سبيل ذلك ما يقرب من الالفى فرنك ، وكنت ساذجا حقا .

انقضت فترة من الزمن على وصول هذه الرسالة الى المحامى درفى ، الذى استعوض الله فى ماله الضائع . وفى احد الايام كان يبحث فى ردهات المحكمة عن احد المحامين من زملائه ليحدثه فى امر من الأمور . علم ان الزميل الذى يبحث عنه يترافع فى احدى الجنح امام الدائرة السادسة . فتوجه اليها . واراد القدر ان يصل الى سمع درفى ، وهو يدخل الى قاعة الجلسة ، ويقترب من منصة القضاة ، صوت القاضى وهو ينطق بالحكم بالحبس لمدة شهرين على من يدعى هيا سانت المتهم بالتشرد .. واشتمل الحكم على احالة المحكوم عليه بعد قضاء العقوبة الى اصلاحية المتسولين ليبقى بها الى أن يأمر النائب العام بالافراج عنه . ومعروف فى القضاء الجنائى أن حكما كهذا يعنى السجن بغير حد زمنى .

وعندما سمع المحامى اسم هيا سانت ، نظر الى المتهم الجالس بين شرطيين على مقعد المتهمين ، وعرف فيه ذلك الشخص الذى ادعى امامه انه الكولونيل شابير .

كان الرجل العجوز هادئا ، صامتا ، لا حراك به ، وكأنه لا يفقه شيئا مما يدور حوله . وعلى الرغم من اسماله ، ومن الشقاء البادى على وجهه ، كانت علامات الكبرياء والنبل تقرأ فى ملامحه . وكانت نظرته تنم عن الشجاعة والاستسلام معا وتنبىء عن انفعالات ما كان يجدر برجل القضاء أن يغفل عنها أو يتجاهلها . ولكن هكذا يفعل القدر . فمتى وقع الرجل منا بين يدى العدالة ، انمحت شخصيته ؟ واصبح مجرد كائن معنوى ، لا خطر له الا بقدر ما تنطبق عليه وجهة نظر القانون ، وبقدر ما يتحصل من الوقائع المنسوبة اليه . وهو كذلك فى نظر الاحصائى ، حيث ينقلب الى رقم من الأرقام المبهمة .

وعندما نقل المحكوم عليه الى قلم الكتاب ليشحن منه الى السجن ، وسط قطيع المتشردين الذين حوكموا فى تلك الجلسة ، استغل دوفى ما للمحامين من حق فى الدخول الى حيث يشاءون من أنحاء المحكمة ، وصاحبه وهو ينظر اليه طويلا ويتطلع الى الخليط البشرى العجيب الذى يحف به ويسير معه . كانت الحجرة التى تجمع فيها هؤلاء البؤساء ، الى جوار قلم الكتاب ، من المناظر العجيبة التى لم يعن بعد بدراستها أحد من المشرعين أو المصلحين أو الرسامين أو الكتاب . وهو امر يثير الأسف ويدعو الى الحزن . كانت هذه الغرفة ، ككل الأماكن التى تدبر فيها المنازعات وتحاك فيها حبائل المشاكسة ، مظلمة عفنة ، تحيط بحوائطها مقاعد خشبية طويلة اكتسبت سوادا من طول ما جلس عليها هؤلاء البؤساء ، الذين يأتون الى هذا اللقاء الكئيب ، مدفوعين اليه بالشقاء والفاقة ، فلا يتخلف عنه منهم احد . قد يقول الشاعر فى وصف هذه الغرفة أن ضوء النهار يستحى عن الوصول الى هذه البؤرة الكريهة التى تمر بها احزان البشر . فما من بقعة فيها الا ومستها الجريمة فى شتى صورها ما لم يولد منها بعد ، وما اكتمل ونما . وما من مكان فيها الا ومر به رجل عصره اليأس بعد العقوبة الأولى ، حينما لم تلتمس العدالة لزلته عذرا ، فانساق فى طريق الاجرام الطويل الذى انتهى به اما الى المقصلة واما الى الانتحار . ان كل الذين شاء لهم سوء الطالع أن تزل بهم القدم فى انحاء باريس ، يؤتى بهم ليجلسوا الى جوار هذه الحوائط الصفراء الكالحة . وقد يستطيع كل مصلح نزيه أن يقرأ فى صفحات هذه الجدران أسباب حالات الانتحار العديدة التى يشكو منها كتاب لا ضمير لهم ، من غير ان يخطوا خطوة واحدة للحيلولة دون وقوعها . ما اكثر المآسى وأشد المظالم التى تشهدها هذه الغرفة المظلمة ! .

جلس الكولونيل شابير وسط هؤلاء الرجال ذوى الوجوه الصارمة ، والملابس الرثة المهلهلة ، الذين ناءوا تحت اثقال البؤس والشقاء . وكان الجميع صامتين أو يتحدثون فيما بينهم همسا ، تحت انظار ثلاثة من رجال الشرطة يرقبونهم ، وهم يخطرون جيئة

وذهابا ، وقد تدلت سيوفهم الطويلة تجرجر في صرير على الأرض .

وقف درفي في مواجهة الرجل العجوز وقال له :

ـ هل تعرفني ؟.

فانتصب الرجل واقفا وهو يقول :

ـ نعم ، يا سيدي ، أعرفك .

وعاد المحامي يقول :

ـ اذا كنت رجلا شريفا ، فما الذي دعاك لأن تظل مدينا لي ؟.

واحمر وجه العجوز خجلا ، كما يحمر وجه الفتاة عندما تتهمها امها بغرام تخفيه . ثم صرخ قائلا :

ـ كيف هذا ؟ الم تدفع لك مدام فيرو المبلغ الذي في ذمتي ؟.

فرد عليه المحامي في تهكم مرير :

ـ تدفع لي ؟.. لقد كتبت لي تقول انك نصاب دعي ..

رفع الكولونيل نحو المحامي عينيه في حركة استنكار واحتجاج وكأنه يشكو الى الله من اهانة جديدة تنزل به ، ومن حنث آخر هو ضحيته . ثم قال في صوت هادىء مكتوم :

ـ سيدي ، احصل لي من رجال الشرطة على اذن بدخولي الى الغرفة المجاورة ، وسأعطيك ورقة بموجبها تنال بغير شك حقك كاملا .

وبعد حديث قصير مع رئيس الشرطة ، دخل المحامي مع هيا سانت الى الغرفة ، حيث كتب رسالة الى الكونتيسة فيرو ، ثم اعطاها لدرفي وهو يقول :

ـ ابعث بهذه اليها ، وستدفع لك كل ما انفقت وكل ما اقرضته لي من مال .. وتأكد يا سيدي ، انني اذا كنت لم اقدم لك الشكر



الواجب على كل ما أسديته لى من معروف : فجميلك هنا لا أنساه أبدا ...

وأشار الكولونيل الى مكان القلب من صدره ، وبعد برهة عاد يقول :

ـ نعم ، انه هنا فى قلبى كاملا حيا . ولكن ما الذى يستطيع البؤساء فعله ؟ الحب .. لا شىء غير الحب ..

قال له المحامى والورقة مازالت فى يده :

ـ كيف ؟.. الم تشترط لنفسك على الكونتيسة دخلا ثابتا يقيك الفاقة والعوز ؟.

رد عليه الجندى العجوز قائلا :

ـ دعنا من هذا الأمر ، ولا تحدثنى عنه . ليس فى مقدورك أن تعلم مقدار احتقارى وكرهى لهذه الحياة الخداعة ، التى يتعلق بها معظم الرجال . لقد أصبت فجاة بمرض عضال ، هو « قرفى » من الانسانية جمعاء ، وكلما تذكرت أن نابليون ملقى هناك فى سانت هيلانة ، هانت الدنيا فى نظرى ، وانصرفت عن كل شىء فى الوجود . لم يعد فى امكانى أن أكون جنديا ، وهذا كل ما يحزننى ويدخل الهم الى قلبى .

وسكت برهة ، ثم عاد يقول وهو يشير بيديه اشارة صبيانية مرحة :

ـ على كل حال ، خير للمرء أن يجعل الترف والذوق فى عواطفه وشعوره ، من أن يحرص عليهما فى ملابسه وثيابه . لم أعد ، انا ، أخشى الاحتقار ولا الشماتة من أحد .

وعاد الكولونيل الى مكانه وسط المتشردين المحكوم عليهم ، وانصرف درفى وهو يتعجب لحال هذا الرجل الغريب ، ويتساءل هل هو مجنون أم هل هو فوق مستوى البشر .

واذ عاد المحامى الى مكتبه ، ارسل جوديشال ، الذى ارتقى واصبح يشغل وظيفة الكاتب الثانى ، الى حيث تقيم الكونتيسة فيرو ، التى ما كادت تقرأ رسالة الكولونيل شابير اليها ، حتى بادرت الى دفع مطلوب درفى باكمله .



فى أواخر شهر يونيو سنة ١٨٤٠ ، كان جوديشال ، الذى اصبح محاميا واشترى المكتب الذى كان يعمل فيه من قبل كاتبا فى ضاحية ريس بصحبة مخدومه السابق درفى . وعندما وصل الرجلان الى الشارع الكبير المؤدى الى ملجأ العجزة المسمى بيسيتر ، لاحظا فى ظل احدى الأشجار الباسقة ، رجلا هرما من تلك الكائنات المحطمة ، التى كساها الشيب ، والتى تقضى ما بقى لها من أيام فى ذلك الملجأ الى أن يحين اجلها . حثالة المجتمع ، ونفاية الانسانية من الشحاذين والمتشردين ومن لا عائل لهم .. وكان هذا الرجل واحدا من الفين امثاله ، كلهم بؤساء عاجزين ، يستضيفهم الملجأ ، ويقدم لهم عيش الكفاف . وكان جالسا على حجر ويبدو مركزا انتباهه كله على منديله الذى فرده فى ضوء الشمس ليجففه ، او ربما ليحتفظ له بلونه العكر الداكن الذى يشبه لون الطباق ، وحتى لا يناله من البياض شىء ، وهى عادة من عادات العجزة يجدون فيها تسلية وعملا . كان وجه الشيخ العجوز سمحا مؤثرا ، فيه ما يجذب النظر ويريح العين .. وكان يرتدى ذلك الثوب الصوفى الأحمر الذى يخلعه الملجأ على نزلائه فيميزهم به عن غيرهم من بنى الانسان .

فجأة قال جوديشال لزميله :

ـ انظر يا درفى الى هذا الرجل العجوز . الا ترى فيه شبها من اولئك الصعاليك الذين يأتون الينا قادمين من المانيا ؟.. ومن

عجب ان هذه المخلوقات تعيش وتدب فى الارض ؟ وربما تسعد ايضـــا !..

وتناول درفى نظـارته ورفعها الى عينيــه ، وبعد ان نظر الى الرجل المسكين ، انطلقت منه صرخة فيها الدهشة والتعجب .. وقال :

ـ لهذا العجوز الفانى ، يا صديقى ، قصة أروع من القصيدة العصماء ، وأوقع مما يسميه الروائيون المـأساة الدامية .. هلا قابلت مرة الكونتيسة فيرو ؟..

فرد عليه جوديشال قائلا :

ـ نعم ، قابلتها مرات .. انها امرأة ذكيــة حلوة الحديث رائعة ، وكل عيبها شىء من التـــدين المغالى فيه تتظاهر به امام النـــاس .

ـ هذا العجوز نزيل ملجأ بيسيتر ، هو زوجهـــا الشرعى ، الكونت شابير ، الكولونيل القديم .. لا شك انها هى التى أودعته هذا المكان . واذا كان المسكين يحيا اليوم حياة الملاجىء بدلا من أن يعيش منعما فى أحد القصور الشامخة ، فما ذلك الا لأنه قال فى يوم من الأيام للكونتيسة فيرو الجميلة انه اخذها من عرض الطريق كما يكترى الواحد منا عربة للركوب . وقـد مست هذه الذكرى شـــيئا فى قلبها . ومازلت اذكر حتى الآن النظرة المتنمرة التى وجهتها اليه فى اللحظة التى واجهها فيها بهذه الحقيقة .

واثارت هذه الكلمات نزعة حب الاستطلاع لدى جوديشال ، فقص عليه درفى القصة التى رويناها فى الصفحات السابقة ..

وبعد يومين من هذه الحادثة ، فى صبيحة يوم الاثنين ، كان الزميلان فى طريق العودة الى باريس . واذ مرا امام ملجأ بيسيتر

القى كل منهما نظرة فى ذلك الاتجاه . فعرض درفى على صديقه ان يذهبا لزيارة الكولونيل شابير .

وفى منتصف الطريق عثرا عليه ، جالسا على ارومة شجرة قطعت ، وممسكا بيده عصا يخط بها رسوما على الرمل ، وكأنه يجد فى ذلك لهوا وتسلية . ونظرا اليه نظرة فاحصة فلاحظا انه قد فرغ لتوه من تناول غذائه القليل فى مكانه هذا خارج الملجأ .

تقدم منه درفى وقال له :

ـ صباح الخير يا كولونيل شابير .

فرد عليه العجوز قائلا :

ـ لا يوجد احد هنا اسمه شابير .. لا يوجد شابير . ان اسمى هيا سانت . لم اعد انسانا كما كنت ، وانما انا رقم .. مجرد رقم ١٦٤ بالحجرة السابعة .

ثم نظر الى درفى فى قلق يخالطه خوف الشيوخ ورعب الأطفال ، وقال :

ـ سترون الآن انسانا محكوما عليه بالاعدام ، مقضيا عليه بالموت ..

وسكت لحظة ثم عاد يقول :

ـ لا . ليست له زوجة ولا ولد . انه سعيد . سعيد جدا .

انقبض صدر جوديشال وقال :

ـ يا له من رجل بائس مسكين !.. هل تريد بعض النقود لتشترى طباقا ؟..

واسرع الكولونيل فى سذاجة غلمان باريس وقحتهم ، يمد لكل من الرجلين يدا متعطشة ، فنفحاه قطعة من ذات العشرين فرنكا ، وكان شكره لهما نظرة بلهاء ، وصرخة تقول : « عاش الجنود الشجعان !.. » وانتصب متخذا الوقفة العسكرية ، ومتظاهرا بالتصويب اليهما ، وكان عصاته قد انقلبت بين يديه

سلاحا ناريا . وراح يبتسم تارة ، ويصيح تارة أخرى : « اطلقوا المدافع .. ليحيا نابليون !.. » ويلوح بعصاه فى الهواء راسما خطوطا وهمية متشابكة .

قال درفى :

ـ لعل الجراح التى أصابت قلبه قد أطاحت بعقله وأعادته الى حالة الطفولة .

وارتفع صوت عجوز من نزلاء الملجأ من خلفهما ، كان ينظر اليهما :

ـ حالة الطفولة !. مع هذا العنيد الواعى !. ما هذا الكلام ؟ هناك أيام لا يجرؤ فيها أحد على مداعبته أو مس كرامته .. انه عجوز لئيم ماكر مملوء بالفلسفة العميقة والخيال الواسع .. اما اليوم ، فله عذره ، لأنه فى يوم الاثنين ، الذى فرض على نفسه فيه الصوم والهدوء . لقد كان هنا ، يا سيدى ، سنة ١٨٢٠ ، وحدث أن مر من أمامه أحد الضباط البروسيين ، اضطر الى الترجل ، بينما كانت عربته ترقى هذا المرتفع الوعر . كنت أنا وهيا سانت على حافة الطريق . وكان ذلك الضابط يتحدث وهو يبتسم مع ضابط آخر ، لعله كان روسيا أو حيوانا آخر من هذا القبيل . واذ رأى البروسى عجوزنا هذا قال له مداعبا : « هذا جندى عتيق لابد انه حضر موقعة روزباخ » . فما كان من هياسانت الا ان رد عليه غاضبا : « لقد كنت طفلا صغيرا فى ذلك الوقت ، ولكننى كبرت بعد ذلك وحضرت موقعة ايينا .. » ففر البروسى هاربا من غير أن يفتح فمه بكلمة .

صاح درفى قائلا :

ـ ما أعجب القدر الذى صاحب حياة هذا الرجل !.. لقد خرج من ملجأ اللقطاء ، وها هو يعود ليموت فى ملجأ العجزة .. وفى المرحلة ما بين الملجأين عاون نابليون فى فتح مصر وغزو أوربا بأسرها ..

ثم صمت المحامى لحظة وعاد يقول :

ـ هل تعلم ، يا صديقى ، ان فى مجتمعنا رجالا ثلاثة ، هم القسيس والطبيب ورجل العدالة ، يتعذر عليهم الرضا عن العالم والاطمئنان الى ما فيه . وهم ثلاثتهم يتسربلون بالسواد ، ربما كان ذلك منهم حدادا على الفضائل كلها ، وحزنا على أوهـــام البشر جميعا . وأكثر هؤلاء شقاء هو بلا شك المحامى . ذلك ان الرجل عندما يذهب لملاقاة القسيس ، انما يقصد اليه مدفوعا بالنــدم والتوبة ، وبالعقائد التى ترفع من قدره وتحمل على الاهتمام به ، فتسعد بذلك نفس الوسيط بين العبد وخالقه ، وتقر به عينه ، وتصبح المهمة التى يقوم بها مدعاة للفرح والسرور . فهو يطهر من الذنوب ويمحو الخطايا ، ويصلح ما فسد من شئون الناس ، ويقيم فيما بينهم الوفاق والوئام . أما نحن المحامين ، فلا تقــع عيوننا الا على نوازع متكررة ، وميول شريرة لا تنتهى ، وانسياقات منحرفة لايصلح من أمرها شيء ، ان مكاتبنا مباءات يتعذر تنظيفها ومجار لا ينضب منها الوحل . كم من الأشياء تعلمتها وخبرتهــا وأنا أزاول مهنتى . عرفت أبا مات فقيرا محروما جائعا ، ملقى فى أحقر مكان ، بلا زاد ولا مال ، ولقد لفظته ابنتاه اللتان وهبهما دخلا يزيد على الاربعين الف جنيه ، رأيت الوصايا تحرق وتدمر .. ورأيت الأمهات تأكلن اموال ابنائهن اليتامى ظلما وعدوانا ، ورأيت الأزواج يسرقون ثروات زوجاتهم . صادفت نساء يقتلن أزواجهن بســلاح الحب ، الذى يولدنه فى قلوبهم ، ليجعلن منهم المجانين أو البلهاء ، ثم يعشن فى هناء مع العشيق والخليل ، رأيت اخريات ينشئن أبنائهن من الزوج الأول على النزق والفساد ، لينعم ابناء الغرام بالثراء والجاه .. رأيت يا صديقى .. وما أكثر ما رأيت .. ولن أستطيع ان أقص عليك كل ما مر بى فى حياة العمل ، وكل ما دخل مكتبى وخرج منه . فهى جرائم تقف العدالة منها موقف العجز واليأس والقصور . آه يا صديقى ، ان المخازى والآثام التى يبتدعها الروائيون ، ويظن القصصيون انها من نســج الخيال .. لهى دائما أدنى من الحقيقة وأقل من الواقع . وستصادفك انت كل هذه الروائع ، وتعرف كل هـــذه العجائب ، فى المهنة التى

اتمنى لك فيها التوفيق . اما انا فحسبى منها ما حصلت عليه من اسرار الحياة . وساذهب الى الريف لأعيش هناك مع زوجتى ، واستنشق هواء طاهرا ، بعيدا عن تلك الموبقات ... ان باريس تثير فى نفسى الاشمئزاز والنفور .

قال جوديشال :

ـ لقد رايت من ذلك الشيء الكثير فى ملفات زميلى القديم ديكروش .. انها الحياة ...

((تمت))